كلود كاهن

Claude Cahen

الكتاب : كلود كاهن
المؤلف : **عبد الستار الحلوجي**
الطبعة : الأولى 2019
عدد الصفحات : 136
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 978-9954-705-52-0
الترقيم الدولي : 2018MO4708

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب

6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان

الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

كلود كاهن
Claude Cahen

عبد الستار الحلوجي

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

اللجنة العلمية

رئيسا اللجنة

عبد العزيز السبيل — أمين عام جائزة الملك فيصل

معجب الزهراني — مدير عام معهد العالم العربي

الأعضاء

بطرس حلاق — رشدي راشد

حسين الواد — فيليب بتريا

التنسيق

الطيب ولد العروسي

أميرة المنيعير

المحتويات

مقدمة 9

أولاً : حياته ومؤلفاته 15

أ- كاهن مؤلفًا 15

ب- كاهن محقِّقًا 45

جـ- كاهن ببليوغرافيًا 57

ثانيًا : مقتطفات من كتاباته 73

ثالثًا : قالوا عنه 111

رابعًا : ببليوغرافية مختارة 131

1- من كتاباته 131

2- مما كتب عنه 133

3- المواقع الشبكية 134

عتبــة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزًا مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

عبد العزيز السبيل — معجب الزهراني

مقدمة

الحديث عن كلود كاهن يستلزم بالضرورة مقدمة عن الاستشراق؛ ما له وما عليه. ذلك أن الاستشراق في أبسط معانيه هو اتجاه بعض الباحثين والعلماء الغربيين لدراسة الشرق؛ تاريخه ولغاته وآدابه ودياناته وشعوبه ومجتمعاته. وقد قُسِّم الشرق في نظرهم إلى شرق أدنى وأوسط وأقصى. فالأدنى هو الأقرب إلى أوروبا، والأقصى هو الأبعد.

وليس من الإنصاف أن نذهب إلى أن الهدف من هذه الدراسات كان دائمًا سياسيًا أو دينيًا، وأن أعمال المستشرقين كان وراءها دوافع سياسية أو دينية، وأنها كانت موجهة لخدمة الاستعمار أو للهجوم على الإسلام. فيحسب للمستشرقين أنهم اجتهدوا في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغاتهم، وأنهم أعدوا الكشافات التي تيسر الإفادة منه ومن السُّنة النبوية المطهرة. ويكفي أن نذكر كتاب **نجوم الفرقان في أطراف القرآن** الذي نشره فلوجل سنة 1842، الذي أوحى لمحمد فؤاد عبد الباقي بفكرة **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، و**المعجم المفهرس لألفاظ**

الحديث النبوي، والذي أعده لفيف من المستشرقين وأصدره الاتحاد الأممي للمجامع العلمية في سبعة مجلدات ضخمة فيما بين سنتي 1936 و1969. وهو كشاف ألفاظ للأحاديث النبوية التي وردت في الصحيحين وسنن أبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجة وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد ومسند الدارمي.

ولم يكتفِ المستشرقون بإعداد كشافات ألفاظ للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وإنما مضوا إلى ما هو أبعد من ذلك، فأصدروا كشافات موضوعية، مثل Le Koran Analyse الذي أعده المستشرق الفرنسي جول لابوم[1]، الذي يصنف الآيات القرآنية تحت ثمانية عشر موضوعًا رئيسًا، تتفرع إلى 354 موضوعًا فرعيًا. و**مفتاح كنوز السنة** الذي وضعه المستشرق الهولندي فنسنك، ونقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي، وهو كشاف موضوعي لأربعة عشر كتابًا، هي أهم مصادر الحديث النبوي[2]،

---

(1) ترجم إلى الإنجليزية، وترجمه محمد فؤاد عبد الباقي إلى العربية بعنوان: **تفصيل آيات القرآن الحكيم**.

(2) الكتب التسعة التي كشفها **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، مضافًا إليها: مسند الطيالسي، ومسند زيد بن علي، وطبقات ابن سعد، وسيرة ابن هشام، ومغازي الواقدي.

والذي قال عنه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب (المنار): «لو وُجد لديّ مثل هذا المفتاح لسائر كتب الحديث، لوفَّر عليّ أكثر من نصف عمري الذي أنفقته في المراجعة»[1].

ويحسب للمستشرقين أيضًا أن رجلاً مثل بروكلمان أصدر كتابه (تاريخ الأدب العربي Geschichte der Arabischen Litteratur في خمسة مجلدات[2] أحصى فيها المخطوطات العربية الموجودة في مكتبات العالم، وحدد أماكن وجودها. وهو كتاب لا يستغني عن الرجوع إليه أي إنسان يشتغل بالتحقيق ونشر كتب التراث العربي.

هذه الأعمال الببليوغرافية وأمثالها برئت من الهوى والتحيز، ولا يجد أهل المشرق حرجًا في التعامل معها والاطمئنان إليها.

وفي المقابل نجد أن بعض الكتابات الاستشراقية التي تناولت الدين الإسلامي والمجتمعات الشرقية وثقافاتها لم تخلُ من زيغ، ولم تسلم من هوى، بعضه وقع بحسن نيَّة، كأن يكون سببه عدم فهم النص العربي على وجهه الصحيح. ويتضح ذلك جليًّا في المواد التي نشرت في دائرة

---

(1) مقدمة الكتاب، صفحة س – ع.

(2) صدرت فيما بين 1898 و1942.

المعارف الإسلامية Encylopedia of Islam، التي تُرجم بعضها إلى العربية، وكانت الأمانة تقتضي الالتزام بالنص الأصلي، ثم التعقيب على ما تضمنته تلك المقالات من آراء أو اجتهادات جانَبَها الصواب.

وإذن فأعمال المستشرقين واجتهاداتهم يصدق عليها ما يصدق على أعمال غيرهم من الباحثين. فيها الصواب وفيها الخطأ. ونسبة الخطأ تتفاوت من موضوع لآخر. فاحتمالاته في علوم الدين – مثلاً – أكبر منها في التاريخ أو الأدب.

وهذا الكتاب عن مستشرق فرنسي متخصص في تاريخ الشرق الإسلامي. استوقفته الحروب الصليبية، فتلبث عندها طويلاً، وجعلها بؤرة اهتمامه، وكتب عنها كثيرًا، حتى باتت كتاباته عنها مراجعَ أساسية لتلك الحروب. كما انصرف لدراسة التاريخ الاقتصادي والإداري والاجتماعي للشعوب الإسلامية، وهو أمر لم يلق من غيره من المؤرخين العرب والأجانب ما يستحقه من اهتمام، ولذا تعدّ كتاباته في هذا المجال كتاباتٍ رائدة؛ سواء اتفقنا أو اختلفنا معه فيما ذهب إليه من تفسيرات وتحليلات.

ولسنا نبالغ إذا قلنا: إن كلود كاهن صاحب مدرسة متميزة في التاريخ للعالم الإسلامي، مدرسة لها منهجها

الذي تلتزم به ولا تحيد عنه، مدرسة لا تقف عند ظواهر الأمور، وإنما تحاول أن تستبطنها، وأن تغوص في أعماقها بحثًا عن أسبابها ودوافعها ومحركاتها، مدرسة تلزم نفسها بالرجوع إلى المصادر المعتبرة في لغاتها الأصلية، ولا تكتفي بما نشر لتلك المصادر من ترجمات، مدرسة تحاول أن تنأى بنفسها عن الهوى، وتفرض على نفسها أكبر قدر ممكن من الموضوعية والحياد في الحكم على الأحداث.

أولاً ـ حياته ومؤلفاته

أ ـ كاهن مؤلفًا

كلود كاهن مستشرق فرنسي يهودي. ولد في العاصمة الفرنسية باريس في 26 فبراير عام 1909، وتوفي بها في 18 نوفمبر عام 1991. وما بين الميلاد والوفاة كانت رحلة عطاء علمي ثري.

درس في ليسيه لويس لوجران، وبعد أن أنهى مرحلة الدراسة الثانوية التحق بدار المعلمين العليا، ثم بكلية الآداب في جامعة باريس، حيث حصل على الدرجة الجامعية في التاريخ سنة 1932. ثم التحق بالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية، حيث درس تاريخ الشرق الأوسط، وأجاد عدداً من اللغات السامية.

انضم في شبابه للحزب الشيوعي الفرنسي وظل عضواً فيه حتى سنة 1960. ورغم أنه انسلخ من الحزب، إلا أنه ظل ماركسيًّا نشطًا بقية حياته.

بدأ حياته الوظيفية مدرسًا في المدارس الثانوية، فدرَّس في ليسيه أميان سنة 1932، ثم في ليسيه روان من 1938 إلى 1940.

حصل على الدكتوراه في الآداب في عام 1940، وعُيِّن أستاذًا للتاريخ الإسلامي بكلية الآداب في جامعة استراسبورج من 1945 إلى 1959، ثم انتقل إلى السوربون. وانتدب أستاذًا زائرًا بجامعة ميتشجان في آن آربر بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1967. وعين أستاذًا في جامعتي باريس الأولى وباريس الثالثة في الفترة من 1970 إلى 1979.

حصل على جائزة شلومبرجر التي تمنحها الأكاديمية الفرنسية للنقوش والآداب Academie des Inscriptions et Belles - Lettres في سنة 1945، وتولى رئاسة تحرير مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق Journal d'histoire économique et sociale d'Orient في سنة 1957، ونشر فيها عددًا كبيرًا من المقالات وعروض الكتب. وفي عام 1973 انتخب عضواً بأكاديمية النقوش والآداب. ورأس الجمعية الآسيوية في الفترة من 1974 إلى 1985. وبعدها انتخب عضواً في معهد فرنسا Institut de France.

أصدر عدة كتب، ونشر أكثر من 200 بحثٍ في

الدوريات المتخصصة، وكتب أكثر من مائة مادة في **دائرة المعارف الإسلامية**، منها 31 مادة في المجلد الأول وحده. بعض هذه المواد في موضوعات تاريخية؛ كالأيوبيين والبويهيين والحروب الصليبية وحطين، وبعضها تعريف بأماكن جغرافية؛ مثل أرمينية وديار بكر وديار ربيعة وبختجان وخنـزيت، وبعضها تراجم لأعلام عربية وتركية وفارسية؛ مثل المخزومي والعظيمي والقاضي الفاضل وابن الجوزي وابن عباد وابن العميد وابن الفرات وابن القلانسي وابن الطوير وابن أبي طي وألب أرسلان وبهرام شاه وخسرو فيروز وغازي چلبي، وبعضها تعريف بمصطلحات؛ مثل: خراج وخطط وجزية وذمة وفتوّة وإقطاع وقطائع وحسبة وأتابك وعريف وقِبَالة (بمعنى كفالة).

وكل مادة تختم بقائمة مراجع لمن يريد أن يستزيد. وهذه القوائم تطول أحيانًا حتى تملأ صفحة بكاملها من صفحات الموسوعة أو تزيد، وتضم مراجع بعدة لغات غربية؛ كالفرنسية والإنجليزية والألمانية، وشرقية كالعربية والتركية والفارسية. وبعض هذه المراجع مؤلفات كاملة، وبعضها بحوث منشورة في الدوريات العلمية المتخصصة.

وأحيانًا يقسم تلك المراجع إلى مصادر مستخدمة، ومؤلفات ودراسات حديثة.

وذلك كله يحسب لكاهن؛ لأنه يدل على إحاطته الواسعة بما كتب في الموضوعات التي تناولها، وعلى أنه شخصية ثرية متعددة القدرات.

ومع أن بعض المواد التي كتبها لم تكن تستحق أن يُكتب عنها؛ لأنها غنيَّة عن التعريف؛ مثل: حرب وخشب وجراد وكرْم وماء وأحداث (بمعنى صغار السن)، إلا أن مسؤولية هذه المواد لا تقع على كاهن وحده، وإنما تقع على هيئة تحرير الموسوعة قبل أن تقع عليه؛ لأنها هي التي تحدد المواد التي يُكتب عنها، وهي التي تختار من يقوم بهذه الكتابة.

ولما تكتسبه كتابات كاهن من أهمية علمية، تُرجم بعضها إلى عدة لغات، في مقدمتها الإنجليزية والعربية، وصدر عنه في سنة 1995 كتاب تذكاري بعنوان **رحلات إلى الشرق**. وفي العام التالي (1996) أصدرت مجلة Arabica عددًا خاصًا عنه اشتمل على ببليوغرافية ضافية أحصت نتاجه العلمي الذي بلغ في ذلك الحين ثلاثة عشر كتابًا (منها كتاب عربي محقق)[1]، وسبعة عشر كتابًا شارك في تأليفها،

(1) المنهاج في علم الخراج. وقد صدر في القاهرة سنة 1986.

فضلاً عن المواد التي كتبها في الموسوعات العامة[1] والبحوث التي نشرها في الدوريات.

نحن إذن أمام شخصية ثرية متعددة الجوانب، وأمام مؤرخ من نوع خاص. مؤرخ تميز بغزارة إنتاجه وتنوع هذا الإنتاج. مؤرخ لا يأبه كثيرًا بالتاريخ السياسي الذي شُغل به أكثر المؤرخين، وإنما يهتم بالتاريخ الاقتصادي والإداري والاجتماعي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، وهو أمر قلَّما نجده عند المؤرخين. فنراه يكتب عن العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى وأوروبا الغربية من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، وعن التاريخ الاقتصادي والمالي لمصرفي العصور الوسطى، وعن الملكية العقارية في العالم الإسلامي في العصر الوسيط، وعن الزراعة في مصر والعالم الإسلامي، وعن الإقطاع والمؤسسات الدينية في الشرق اللاتيني، وعن تطور الإقطاع الإسلامي ما بين القرنين التاسع والثالث عشر، وعن الضرائب في مصر وسوريا والعراق، وعن الجمارك والتجارة في موانئ مصر في البحر المتوسط في العصور الوسطى، وعن الري والصناعات في العراق في مستهل القرن الحادي عشر. وإلى

---

(1) كالموسوعة البريطانية والإيرانية والعالمية.

جانب ذلك نراه يكتب عن الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال العصور الوسطى، وعن الإسلام والأقليات الطائفية، وعن حفاوة نصارى الشرق بالإسلام، وعن الفرق الإسلامية كالزيدية والنصيرية، ويكتب عن المخطوطات الإسلامية بمكتبة الفاتيكان، وعن قواعد نشر النصوص العربية وترجمتها، ويفتش في التراث العربي عن خيوط ينسج منها التاريخ الاقتصادي والإداري للعالم الإسلامي، فينشر بعض المخطوطات العربية المتصلة بهذا التاريخ.

وإلى جانب كتابات كاهن التاريخية، التي تستمد قيمتها من أنها تلقي أضواء كاشفة على الأحوال الاقتصادية والإدارية والاجتماعية، وعلى الحركات السياسية الدينية في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، نجده يولي اهتمامًا خاصًا بالتاريخ للحروب الصليبية التي اهتم الفرنسيون بنشر مصادرها أكثر من اهتمام غيرهم من الأوروبيين، ربما لأنهم عدُّوا تلك الحروب مغامرة فرنسية بحتة، ومن ثَمَّ نهضت المجامع والهيئات العلمية بإصدار مجموعات علمية نفيسة عن تلك الحروب، لعل أشهرها **مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية** التي صدرت عن الأكاديمية الفرنسية للنقوش

والآداب في ستة عشر مجلـدًا، اختص بعضها بنشر ترجمات لنصوص مختارة من **تاريخ أبي الفدا** (732هـ/1331م)، وكتاب **الكامل** لابن الأثير (630هـ/1232م)، **وسيرة صلاح الدين** لابن شـداد (632 هـ/ 1234م)، **ومـرآة الزمان** لسـبط ابن الجوزي (654 هـ/1256م)، **وبغية الطلب في تاريخ حلب** لابن العديم (660 هـ/1261م)، **والروضتين في أخبار الدولتين** لأبي شامة (665هـ/ 1266م). ونشر رينو Reinaud أستاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس كتابين؛ أحدهما صدر سنة 1829 بعنوان **ملخص ما كتبه مؤرخو العرب عن الحروب الصليبية**، والآخر صدر سنة 1832 بعنوان **الحروب الصليبية من تاريخ الكامل لابن الأثير**.

وقد بدأ اهتمام كاهن بالحروب الصليبية برسالته التي تقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه في سنة 1940، وموضوعها: **شمال سورية في عصر الحروب الصليبية**، ومن بعدها تتابعت بحوثه عن تلك الحروب، فنشر في سنة 1954 بحثًا بعنوان **مدخل إلى الحملة الصليبية الأولى**[1]،

(1) نشرته مجلة Oxford، ونشرت (مؤمنون بلا حدود) ترجمته العربية سنة 2018.

وشارك بكتابة فصول من كتاب **تاريخ الحروب الصليبية** الذي نشر في عامي 1955و1962. وفي سنة 1983 أصدر كتابه **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية**[1].

وفي كتاباته عن تلك الحروب نراه ينص صراحة على أنه لا يكفي الرجوع إلى ما كتبه الأوروبيون عنها، وإنما ينبغي أن نسمع وجهات نظر الطرف الآخر في هذه الحرب، وهم العرب، وأن نقرأ ما كتبوه عنها. وفي ذلك يقول:

«إن كل ما كُتب في هذا الموضوع قد تمّ من وجهة نظر غربية، ومن المؤكد أن الحروب الصليبية ظاهرة غربية لا مجال لعرضها من منظور شرقي، ومع ذلك فهي تندرج بشكلٍ ما داخل سياق شرقي، وقد يكون من المفيد عقد مقارنة بين المجتمعين اللذيْن وضعتهما الحروب الصليبية وجهًا لوجه»[2]. ويردف قائلاً:

«يجب إفساح المجال للنظر إلى التفاعل بين عالم البحر المتوسط والشرق الأدنى والأوسط نظرة متبادلة من كلا الطرفين»[3].

---

(1) ترجمه إلى العربية أحمد الشيخ، ونشرت الترجمة في القاهرة سنة 1995.
(2) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص 19 - 20.
(3) المصدر السابق، ص 20.

فهو هنا يقرر أن الحروب الصليبية، وإن كانت مبادرة أوروبية انطلقت من الغرب، وأن الغرب وإن كان هو الأقدر على دراستها، فإنه في اللحظة التي وطئت فيها هذه الحملات أرض المشرق يصير من حق الشرقيين أن يقوموا بدراستها.

ويمضي كاهن إلى ما هو أبعد من ذلك، فيطالب المؤرخ بأن يكون على علم بلغات الشعوب التي طالتها تلك الحروب، وأن يرجع بنفسه إلى المصادر الشرقية التي كتبت عنها في لغاتها الأصلية، وألا يقنع بما نشر لها من ترجمات. يقول: «لا يعقل أن يزعم أحد أنه بالإمكان تحقيق ضروب من التقدم الجدّي في هذا المجال بدون معرفة اللغات التي قد لا تيسِّرها الحواجز الجامعية بين فروع المعرفة، لكن لابد للمؤرخ من أن يتمكن منها بنفسه»[1].

وانطلاقًا من هذه الفكرة، مضى يبحث عما كتبه المؤرخون العرب عن هــذه الفترة في أصوله المخطــوطة، وينشر بعضه مما سيأتي الحديث عنه فيما بعد.

ويبدو أن اشتراكه في الحرب العالمية الثانية، وأسره من ناحية، وانشغاله بالحروب الصليبية، وبما كتبه العرب عنها

(1) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص 20.

من ناحية أخرى، أغرياه بأن يوسع الدائرة، فيبحث عما أَلَّفه العرب عن الحروب وأسلحتها، فنراه ينشر في سنة 1948 رسالة عن الأسلحة والذخائر والمعدات الحربية، كتبها الطرسوسي (589هـ) لصلاح الدين الأيوبي، وجعل عنوانها **تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، وأعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء**.

ويعد كاهن من المؤرخين الأفذاذ في استقصاء المصادر بلغاتها الأصلية، يدل على ذلك بحثه الذي كتبه عن التاريخ والمؤرخين العرب، ونشر في كتاب **التاريخ والمؤرخون في الحضارة العربية الإسلامية** تأليف بوزورث ويونج وكاهن وعباس حمداني[(1)]، الذي استعرض فيه المؤلفات التاريخية العربية في المشرق والمغرب من بدايتها حتى العصر المملوكي، بدءاً بكتب التاريخ العام؛ كالطبري والمسعودي وابن الأثير، ومروراً بالتواريخ المحلية، كتواريخ شبه الجزيرة العربية والعراق واليمن والشام وأفريقية ومصر والمغرب والأندلس وصقلية، وتواريخ المدن **كتاريخ بغداد** للخطيب البغدادي **وتاريخ مدينة دمشق** لابن عساكر **وبغية**

(1) ترجمه إلى العربية قاسم عبده قاسم، ونشره في القاهرة سنة 2017.

الطلب في تاريخ حلب لابن العديم وغيرها. وهو لا يقنع بكتب التاريخ المحض، وإنما يتجاوزها إلى كتب التراجم؛ كتراجم الوزراء وأتباع المذاهب الفقهية، وإلى كتب الفضائل والمناقب وكتب الأنساب. ولا يكتفي بحصر المؤلفات، وإنما يغوص في أعماقها ويستعرض محتوياتها، ويُظهر جوانب القوة والضعف فيها، ويتحدث عن موضوعية المؤرخين وحيادهم ومدى اعتماد كل منهم على المصادر الأصلية، ويشير إلى الأصول المخطوطة لبعضها، وإلى أماكن وجودها، وإلى المفقود منها. كما يشير إلى الفترات التي شهدت ثراءً في التدوين التاريخي، وتلك التي شهدت جموداً وضعفاً.

وهو لا يتردد في إصدار الأحكام على بعض المؤرخين، كقوله: «إن الطبري وكتابه العظيم **تاريخ الرسل والملوك** علامة على نقطة التحول من الأسلوب القديم في تدوين التاريخ إلى التدوين التاريخي الجديد الذي جاء بعده». ويستطرد قائلاً: «ومن الغريب أن الطبري الذي اعتبر على مدى أجيال، وإلى حدّ معين حتى الوقت الحالي، تجسيداً للتاريخ كله.. لم يبق أي كتاب تم تأليفه عن الرجل نفسه»[1]. ويقرر أن الرجل «نغمته

---

(1) التاريخ والمؤرخون في الحضارة العربية الإسلامية، ص 71.

محايدة دائمًا، وليست هجومية على الإطلاق، وعندما يكون من الممكن التحقق من اقتباس نجد أنه دقيق»[1].

ويقول عن أبي حنيفة الدينوري مؤلف كتاب **الأخبار الطوال**: إنه كان «فارسيًّا صاحب نظرة تحررية. اهتم بعلم النبات بين علوم أخرى»[2].

ويحكى عن ابن واصل أنه «لقي التجاهل نسبيًا وظلمًا حتى وقت قريب. على الرغم من وجود عدد جيد من المخطوطات التي يسهل الوصول إليها»[3].

ويقول عن العتبي الذي كتب سيرة محمود الغزنوي: إن «لغته كانت لغة مدرسية مزخرفة بشكل مصطنع من أجل حاكم لم يكن يعرف العربية جيدًا»[4].

ويذكر أن إحدى الخصال المهمة في ابن الأثير تتمثل في وضوح أسلوبه والعناية بالشرح.. وأنه استفاد من السجلات المحفوظة في بغداد والموصل، وربما دمشق وغيرها، وأنه «أول كاتب في الشرق يفيد من المصادر

---

(1) ص 84.
(2) ص 70.
(3) ص 111.
(4) التاريخ والمؤرخون في الحضارة العربية الإسلامية، ص 85.

الإسلامية في الغرب الإسلامي»[1].

وهو يقارن بين التدوين التاريخي العربي ونظيره الفارسي، فيصف الأخير بأنه يميل إلى الأسلوب الشعري المزخرف، وإلى المبالغة في بعض الأحيان[2].

ويحسب للرجل التزامه بقدر كبير من الموضوعية، وتجرده عن الهوى في التعامل مع الأحداث التاريخية، ففي بحثه المعنون **مدخل إلى الحملة الصليبية الأولى** يقول[3]: «عند النظر إلى الأتراك في ضوء التاريخ المتأخر للإمبراطورية العثمانية، نجد أن المؤرخين اعتقدوا دومًا أن الأتراك عرق غير متسامح البتَّة. يجب العمل بجدٍّ على تصحيح هذه الرؤية التقليدية كخطوة أولى».

وفي الفصل الخاص بالإمبراطورية العثمانية في **مصادر دراسة التاريخ الإسلامي**[4] نقرأ:

«لا تزال الإمبراطـورية العثمانية تخضع من حين لآخر

---

(1) ص 109.

(2) ص 81، 116.

(3) ص 4 من الترجمة العربية التي قام بها عبد الباسط منادي إدريسي، ونشرتها في المغرب **مؤمنون بلا حدود**، في 14 مارس 2018.

(4) ص 307.

لقدر من التحامل لا تستحقه. ويمكن تتبع هذا التحامل عليها في تاريخ علاقاتها بأوربا منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن العشرين. كانت الإمبراطورية العثمانية منذ القرن الخامس عشر وحتى الثامن عشر إحدى القوى العظمى بالعالم الغربي، بل كانت أكبرها في بعض الفترات... ولا تستطيع شعوب البلقان وآسيا وأفريقيا العربية، التي كانت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية طوال عدة قرون، أن تفصل تاريخها عن تاريخ غزاتها. ومن ثم فلا تستطيع تواريخ سائر الأمم أن تتجاهل الأتراك. إلا أن الصورة التي ترسمها لهم تحتاج إلى إعادة نظر في العديد من جوانبها. وهي في العادة تنظر إلى العثمانيين من الزاوية الوحيدة التي كانت أوربا تنظر إليهم منها حين كانت إمبراطوريتهم في قمة عنفوانها، أي باعتبارهم بقايا عصر آخر، وينبغي القضاء عليهم. وكانت عبارات من قبيل (المسألة الشرقية)، و(الاضمحلال العثماني)، و(رجل أوربا المريض)، و(الهمجية)، و(القهر) هي الموضوعات التي تناولتها الكتب فيما مضى، وما عجزت عن الإشارة إليه هو أن الإمبراطورية العثمانية في عصر نهضتها كانت موضع إعجاب زوارها الأوربيين لقوتها العسكرية وتفاني شعبها وتنظيمها الإداري وثقافتها، مما اضطر خصومها إلى احترامها».

ومن أهم الكتب التي ألفها كاهن، وترجمت إلى العربية كتاب **الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية** L'Islam: des origines au début de l'Empire Ottoman[1]. وهو كتاب يستحق أن نتناوله بشيء من التفصيل، لا لأهمية موضوعه، ولا لاتساع مجاله فحسب، وإنما لأنه يصور لنا منهج الرجل في دراسة التاريخ، فهو لا يعرض لنا تاريخ العالم الإسلامي من خلال عصوره المعروفة كالعصر الأموي والعباسي والأيوبي والمملوكي، ولا من خلال الأقاليم؛ كمصر والعراق والشام والأندلس، وإنما يعرضه بطريقته الخاصة التي تجمع بين العصور والقرون والموضوعات. فهناك فصل عن العصر الأموي، وآخر عن الاقتصاد والمجتمع في العالم الإسلامي حتى القرن الحادي عشر، وفصل عن الجيش وعناصره في العصر العباسي، وعن التحولات السياسية والاجتماعية التي حدثت من منتصف القرن التاسع إلى منتصف القرن العاشر، وفصل عن الحركات السياسية والدينية التي ظهرت في تلك الفترة، كالشيعة والنصيرية والإسماعيلية والمعتزلة والصوفية،

---

(1) ترجمه إلى العربية حسين جواد قبيسي، ونشرته المنظمة العربية للترجمة في بيروت سنة 2010.

وفصل عن الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، وهكذا.

وأول ما يلفت الانتباه في هذا الكتاب أن الفصل الثامن، الذي خصصه للحديث عن الاقتصاد والمجتمع في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، هو أضخم فصوله، حيث شغل قرابة مائة صفحة في الترجمة العربية. وفيه تحدث المؤلف عن الأراضي وتنوعها وتباين تضاريسها، وعن مُلاَّكها وغَلاَّتها الزراعية، وعن الريّ وطرقه والآلات التي كانت تستخدم في الزراعة، وعن أشكال المزارعة والعمل في الأرض، وعن تربية المواشي والدواجن. ومضى إلى ما هو أبعد من ذلك فعرض للثروات المعدنية المخبوءة في باطن الأرض كالذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير والفحم وكيفية استخراجها.

ومن الريف انتقل إلى الحضر، فتحدث عن المدن الإسلامية وتنظيمها وشوارعها ومبانيها، وعن الفئات الاجتماعية لقاطنيها، وعن الصناعات والمهن التي كانت موجودة فيها، وعن أجور العمال والحرفيين، وعن التبادل التجاري بين العالم الإسلامي والعالم الخارجي، وعن الطرق البرية والبحرية للتجارة، وعن وسائل النقل وتقنياته.

وفي الفصل الحادي عشر الذي خصصه للحديث عن التجزئة السياسية وأوج الثقافة في العالم الإسلامي من النصف الثاني من القرن الثامن حتى القرن العاشر، يطوِّف بنا كاهن في أرجاء العالم الإسلامي شرقًا وغربًا، فيتحدث عن الأغالبة والأدارسة في المغرب العربي، وعن الدولة الأموية في الأندلس، وعن الخلافة الفاطمية في المغرب ومصر، وعن الدول التي قامت في إيران والعراق والشام. ويختمه بالحديث عن مصر التي وصفها بأنها «كانت الدولة العربية الحقيقية في العالم العربي»[1]. وفي هذا الفصل – كما في غيره – تمتزج السياسة بالثقافة والاقتصاد والدين.

فهو يصف فترة حكم الأغالبة في شمال أفريقيا بأنها كانت «فترة نهوض اقتصادي لم يشهد تاريخ أفريقيا الشمالية مثيلاً لها منذ الحكم الروماني، فقد أنجز في تلك الفترة الكثير من منشآت الري، وشُقَّت ترع وقنوات جديدة، كما استصلحت القنوات القديمة، وأدخلت إلى المغرب زراعات جديدة كالزيتون والشجر المثمر، أضيفت إلى زراعة الحبوب والخضار، وتضاعفت موارد الغابات الدائمة وتربية الدواجن والمواشي، واستغلت مناجم الحديد

(1) ص 371.

والرصاص والإثمد (أو الكحل) والنحاس، وكان الرومان يجهلونها، كما زادت موارد صيد الأسماك والمرجان. وكانت تلك المواد الأولية تغذي صناعات كانت منتجاتها تصدر إلى السودان ومصر وإيطاليا»[1].

وفي حديثه عن أسبانيا بعد الفتح الإسلامي يذكر أن كثيرين من مواطنيها «بقوا مسيحيين ولا سيما حول مدينة طليطلة القديمة، وعاشوا في ظل تسامح تجاوز مناخ التسامح الذي ساد المشرق... وهم الذين تُطلق عليهم تسمية «موزاراب»، والذين كان لهم دور طاغٍ في نقل الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا. وكان اليهود مضطهدين في ظل الحكم القوطي، فاستقبلوا الحُكم الإسلامي بالترحاب، وأدوا دورًا متأخرًا، لكنه كان دورًا مهمًا»[2].

وفي حديثه عن تاريخ إيران يصف الفترة السامانية بأنها «كانت العصر الذهبي لآسيا الوسطى في تاريخها الإسلامي، وربما في تاريخها كله»[3]. ويقول: إن الأدب الفارسي «بلغ ذروته مع الفردوسي، هوميروس الإيرانيين، في وقت كان يعيش فيه ويتكون علماء، وما أكثرهم، في

---

(1) ص 330.
(2) ص 336.
(3) ص 345.

شتى ميادين المعارف، نذكر منهم على سبيل المثال ابن سينا والبيروني»[1].

ويصف البويهيين بأنهم بنوا صروحًا عمرانية رائعة الحسن في أصفهان وشيراز وبغداد، وأنهم كانوا «يتعهدون أعمال المفكرين العرب ويمولونها. ولا تزال المراصد والمكتبات والمعاهد والمستشفيات التي أنشاؤها مثار دهشة وإعجاب»[2].

وفي حديثه عن الدولة الحمدانية بالشام يتوقف عند سيف الدولة، ويقول إن أعماله «خلّدته على الصعيد الأدبي والفكري. فإلى جانب كونه مقاتلاً صنديدًا، كان أيضًا مثقفًا رفيعًا على النمط العربي التقليدي، وكان راعيًا للأدب والفكر، ونصيرًا للعلماء والمفكرين، واعيًا بأهمية الكلمة ودورها في نشر الفكر. فعلاوة على الفارابي الفيلسوف القادم مما وراء النهر، والذي احتضنه سيف الدولة لينجز أعماله الفلسفية، عاش في كنف سيف الدولة أيضًا، وقال فيه شعره كل من المتنبي صاحب الكلمة الشعرية الساحرة، وباعث القيم العربية العريقة، والأمير الحمداني أبي فراس

(1) ص 347.
(2) ص 363.

الذي يؤثِّر شعره تأثيرًا عميقًا في النفس»[1].

وفي الفصل الأخير من الكتاب يتحدث كاهن عن دولة المماليك، ويعزو صمودها ثلاثة قرون إلى الموارد التي كانت تدرها عليهم التجارة الخارجية، كما يتحدث عن إيران وما جاورها تحت حكم المغول والتيموريين. ثم يستعرض أوضاع آسيا الصغرى في مطلع عهد العثمانيين، ويتحدث عن مراحل التوسع العثماني، وعن الدول الإسلامية في الغرب الإسلامي؛ دولة الحفصيين في الشرق (تونس وقسنطينة)، ودولة المرينيين في الغرب (المغرب الأقصى). ويذكر من أعلام المغرب ابن خلدون الذي «يعتبر اليوم بحق قمة من قمم الفكر في العصر الوسيط»، ويعدّ تاريخه «مصدر معلومات لا ينضب معينُه»[2]، وابن بطوطة الذي سجل في رحلاته من كانتون إلى تومبوكتو معلومات لا تبزّها ولا تضاهيها كتابات الرحالة البندقي ماركوبولو[3].

كما يتحدث عن الأندلس، ويصف قصر الحمراء في

(1) ص 369.
(2) ص 475.
(3) ص 475.

غرناطة بأنه «آخر روائع الحضارة الإسلامية الغربية وأكثرها أهمية»، وبأنه «من الآثار النادرة لفن العمارة الإسلامي في العصور الوسطى، وأكثرها شهرة وروعة»[(1)].

ويختم هذا الفصل بقوله: «ومهما يكن من أمر، فإن الغرب لن ينسى أنه تتلمذ على يد ابن سينا وعلى يد ابن رشد وغيرهما، وأن كاتدرائية دي بُوي في قلب فرنسا بالذات ما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه لولا مسجد قرطبة»[(2)].

ويُحسب لكاهن أنه أمدنا في هذا الكتاب بتفاصيل كثيرة عن الزراعة والري، وعن الثروات المعدنية، وعن الصناعات، وعن مظاهر العمران، وعن الآداب والفنون في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، ومثال ذلك أنه يذكر في الفصل الخاص بالجيش أن «نصف موازنة الدولة العباسية التي كانت تبلغ 14 مليون دينار حوالي عام 980، كان يذهب إلى الجيش»[(3)].

كما يحسب له أنه يؤصل المفاهيم ويحدد المصطلحات

---

(1) ص 474.

(2) ص 479.

(3) ص 296.

التي يستخدمها، ويردها إلى أصولها؛ ففي الفصل الأخير يعرِّف لنا مصطلح «الإنكشارية» بأنه يرجع إلى الأسلوب الذي اتخذه العثمانيون لتجنيد أبناء الشعوب التي خضعت لسلطانهم، «وهو المعروف باسم دفشيرمه الذي ينتج الجيش الجديد (بالتركية يني شيري) التي غدت باللاتينية جانسيير Janissaires، وبالعربية انكشاري، وهو جيش المدفعية»[1].

ويحسب له أيضًا أنه يصوِّب بعض الأفكار الخاطئة التي شاعت في كتب التاريخ، فنراه – في الفصل الأخير من الكتاب مثلاً – يصحح الصورة التي ارتسمت للمماليك في الأذهان، فيذكر أنهم «كانوا ينفقون في مصر ما يحصِّلونه منها، كما أنهم أبقوا لمصر ولسوريا في فترات معينة وحدة وانتظامًا إداريًا كانا موضع حسد الدول المجاورة»[2]. ويستشهد على ذلك بما كتبه عنهم القلقشندي في كتابه **صبح الأعشى**، ثم يستطرد قائلاً: «لم يكن الخطأ خطأ المماليك عندما كانت تبرز بعض المخاطر، ولا عندما ينفذ ذهب النوبة، ويذهب ذهب السودان الغربي إلى خزائن

---

(1) ص 471.

(2) ص 454.

الأوروبيين عبر المغرب، فتضطر مصر إلى التعامل بالعملة النحاسية التي كانت قيمتها تتدنى بلا توقف، من دون أن تكون على أي حال دليل فقر... لم يكن خطؤهم أن اجتاح الطاعون الأسود بلادهم كما اجتاح بلاداً أخرى»[1]. ويصف عصرهم من الناحية الثقافية بأنه، وإن لم يكن عصر إبداع، إلا أنه لم يكن عصر تخلف أو انحطاط، فقد بقي «الفكر حيًّا في الكثير من الميادين، وإن كان في مجال جمع المعارف في مؤلفات موسوعية أكثر منه في مجال إبداعها وابتكارها، لكنها كانت جميعًا موجَّهة لجمهور توَّاق إلى المعرفة»[2]. ويذكر من مؤرخي تلك الفترة الذهبي السوري، والصحفي ابن إياس، والإخباري (كاتب الحوليات) ابن تغري بردي، و«المقريزي الذي ندين له بكل ما نعرفه حول مصر القرون الوسطى.. ناهيك بالموسوعيين الكبار أمثال النويري والسيوطي والمؤرخ الجغرافي الأمير أبي الفدا»[3]. ويضيف أن «تلك الحيوية الفكرية كانت أشد وأكثر أصالة في ميدان الفن منها في الميادين الأخرى. تشهد على ذلك أضرحة السلاطين والخلفاء والمساجد والمدارس والأبنية

---

(1) ص 455.

(2) ص 456.

(3) ص 456.

الدينية التي كان الغرض منها الجمع بين تلك الأنشطة جميعًا: مسجد وضريح السلطان قلاوون، مسجد ومدرسة السلطان حسن الذي تدرَّس في الأجنحة الأربعة الملحقة به مذاهب الفقه الإسلامي الأربعة، ومسجد السلطان قايتباي... علاوة على المستشفيات وأديرة الصوفية والخانات والحمامات، وكلها مبنية بأسلوب تقليدي أنيق مائل إلى الابتكار والتجديد»[1].

وعندما عرض للمغول ذكر أن التجارة نشطت في عهدهم، وأنهم «أتاحوا قيام علاقات تجارية مباشرة بين أنحاء القارة الآسيوية كافة، وأتاح سماحتهم للكنيسة الرومانية أن تقيم لها أسقفيات وبعثات تبشيرية في المنطقة الممتدة من البحر الأسود إلى الصين. كما أتاح تسامحهم مع التجار الطليان، الذين جعلتهم الحملة الصليبية الرابعة أسياد التجارة في البحر الأسود برغم سقوط القسطنطينية، أن يصلوا إلى الهند والصين»[2].

ولكنه لم يغمض عينه عن مآسيهم، ولم يقلل من فظائع جنكيز خان وتيمورلنك، فقد وصف الأخير بقوله: «كان

(1) ص 456-457.
(2) ص 460.

تيمورلنك الذي بزّ جنكيز خان في نشر الرعب والهلع في العالم وحشاً جاهلاً همجيًّا، وقائدًا فذًا اشتهر بكونه الجزار الأكبر في التاريخ... زرع الرعب والموت في عالم امتد من روسيا الوسطى إلى الهند الشمالية، ومن حدود الصين إلى سوريا وآسيا الصغرى. وكانت انتصاراته تتجاوز حدود الخيال»[1]. وعقَّب على ذلك بقوله: «على الرغم من الفظائع التي خلفها المغول الأوائل، خلفوا إمبراطورية ذات وجه إيجابي وعاشت ردحًا من الزمن»[2].

وفي المقابل يؤخذ على الرجل في هذا الكتاب أمور، منها:

* أن الفصل الثاني الذي خصصه لعرض سيرة النبي ﷺ لم يكمل عشر صفحات في الترجمة العربية، وأن الفصل الرابع الذي خصصه للعصر الأموي لم يتجاوز 27 صفحة. وفي مقابل هذا الإيجاز المفرط، نجد كاهن يفرد مساحة واسعة للفصل الثامن الذي خصصه للحديث عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، مساحة تكاد تبلغ عشرة أضعاف ما خصصه

---

(1) ص 465.

(2) ص 466.

للحديث عن عصر النبي ﷺ، رغم اعترافه في أكثر من موضع بشُحّ الوثائق المتعلقة بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية في العالم الإسلامي في ذلك الزمان. وهذا مظهر لعدم التوازن وانعدام التناسق بين الفصول. ومع تسليمنا باتساع الفترة التي يغطيها الكتاب زمانًا ومكانًا، إلا أن ذلك لا يبرر لكاهن معالجة عصر النبوة تلك المعالجة المبتسرة، التي لا تتناسب مع أهمية تلك الفترة للتاريخ الإسلامي وللعالم الإسلامي كله.

* أنه في الفصل الثالث، الذي تناول فيه عصر الخلفاء الراشدين دون أن يسميه بهذا الاسم، مرّ على هذا العصر مرورًا سريعًا رغم ما شهده من أحداث عظام، مثل الفتنة الكبرى التي بدأت بمقتل عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين ومازالت آثارها ممتدة إلى يومنا هذا، فلم يولها ما تستحقه من تعمق وتأصيل رغم كثرة ما كتب حولها وما ثار حولها من جدل.

* أنه وقع في أخطاء لا يمكن تجاوزها أو غض الطرف عنها. فهو يذكر – مثلاً – أن تدوين المصحف بعد وفاة النبي ﷺ نجم عنه أخطاء في ترتيب سوره[1]، وأن «القرآن

(1) ص 31.

ليس له منهجية»[1]، وأن «المحاولات شددت على شهوات محمد الدنيوية وعشقه للنساء»[2]، وأن العرب كان عليهم «إما الدخول في الإسلام وإما الموت قتلاً»[3]. وهو يردد أن البعض اتهم الخليفة عثمان بن عفان بالعبث في المصحف[4]، وبأنه «بدل وحذف بعض كلام القرآن»، وإن كان يعقب على هذا الادعاء الأخير بأنه «ليس ثمة ما يبرر هذه الشكوك». وتلك أخطاء علمية وتاريخية فادحة. وليس هنا مجال تفنيدها والرد عليها. وحسبنا مناقشة نقطتين:

أولاهما الادعاء بأن النبي ﷺ كانت له شهواته الدنيوية وأنه كان يعشق النساء. وهو وصف يدحضه أنه ﷺ تزوج في شبابه من خديجة التي كانت تكبره بخمسة عشر عامًا، وعاش معها ربع قرن، لم يفكر فيها في الزواج بغيرها، رغم شيوع ظاهرة تعدد الزوجات في البيئة العربية في ذلك الزمان، وأن كل زيجاته التالية تمت بعد وفاة خديجة وبعد أن تجاوز الخمسين من عمره، وكان لكل منها قصة وسبب، وأن السيدة عائشة، رغم أنها كانت أحبَّ نسائه

(1) ص 36.

(2) ص 36.

(3) ص 39.

(4) ص 52.

إليه، لم تكن تغار من غيرها من نساء النبي ﷺ بقدر ما كانت تغار من ذكرى خديجة التي لم ينسها النبي ﷺ بعد وفاتها، وإنما كان دائم التذكر لها، والحفاوة بكل من كانت له صلة بها.

أما النقطة الثانية، فهي القول بأن العرب لم يكن أمامهم غير الدخول في الإسلام أو الموت. وهو قول ينقضه القرآن الكريم الذي ينص على أنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1]، والذي يقرر بعبارة صريحة لا مجال للاجتهاد فيها: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[2]. ولم تكن الجزية نوعًا من العقوبة لغير المسلمين الموجودين في المجتمع الإسلامي، وإنما كانت أشبه بضريبة الأمن القومي. فهم يدفعون الجزية نظير أن يعفوا من الجندية، وأن يتولى جند المسلمين حمايتهم كما يحمون المسلمين سواء بسواء.

ومثل هذه الأخطاء قد تكون مقصودة، وقد يكون السبب فيها اعتماد كاهن على الكتابات الغربية المعاصرة، وعدم رجوعه إلى المصادر العربية الأصلية التي تناولت التاريخ الإسلامي بالتفصيل.

---

(1) سورة البقرة، آية 256.

(2) سورة الكهف، آية 29.

وقد يشفع لكاهن قوله في ختام مقدمته للكتاب: إن «صورة الإسلام التي نقدمها له تبقى غير مكتملة ومؤقتة جدًا»، وإن كان يردُّ ذلك إلى عدم وجود وثائق كتلك التي بني عليها تاريخ أوروبا.

* أن قائمة المراجع التي خُتم بها الكتاب، التي ضمت أكثر من ثلاثمائة مرجع، هي أقرب إلى القائمة الببليوغرافية منها إلى قائمة المراجع. بعضها كتب كاملة، وبعضها مقالات نشرت في الدوريات، وأغلبها بالفرنسية، وقليل منها باللغات الأوروبية الأخرى كالإنجليزية والألمانية والإيطالية، وبعضها ألّفه عرب أو أتراك معاصرون، وأصدروه بالفرنسية في باريس أو تونس أو بيروت. ومع أنها ضمت بعض المؤلفات العربية، إلا أن تلك المؤلفات لا تشكل إلا نسبة ضئيلة جدًا من مراجع الكتاب، وكلها لمؤلفين معاصرين، ومن ثم تعد مصادر ثانوية؛ لأن مؤلفيها استمدوا معلوماتهم من المصادر القديمة، ولأنها تعكس وجهات نظر أصحابها، وليس فيها مصدر واحد عربي قديم يُعتدّ به، رغم سعة اطلاع كاهن على المصادر التاريخية العربية: مخطوطها ومطبوعها، ورغم علمه بأن المصادر

الأساسية لهذا الموضوع مصادر عربية، وبأن المكتبة العربية بها ثروة ضخمة من الكتابات التاريخية، وكثير منها طبع في الشرق والغرب، ولم يكن من العسير على مستشرق كبير مثله أن يطَّلع عليه. والأكثر من ذلك أن بعض المؤلفات المذكورة بالقائمة تخرج عن موضوع الكتاب؛ مثل كتابي **تاريخ الأدب العربي** لبروكلمان، **وتاريخ التراث العربي** لسيزگين، وهما ليسا كتابين في التاريخ كما يوحي بذلك عنواناهما، وإنما عملان ببليوغرافيان يحصيان المخطوطات العربية، ويحددان المكتبات التي توجد بها تلك المخطوطات. وذلك أمر مستغرب على رجل مثل كلود كاهن الذي يجيد العربية، والذي نشر بعض مخطوطاتها التاريخية، وكتب دراسة ممتعة ومستوعبة استعرض فيها مؤرخي الحضارة العربية الإسلامية في المشرق والمغرب[1].

---

(1) نشرت في كتاب: **التاريخ والمؤرخون في الحضارة العربية الإسلامية**، ص 57-117، وسبقت الإشارة إليها.

ب ـ كاهن محققًا

كان طبيعيًا لمستشرق متخصص في التاريخ الإسلامي في قامة كاهن ألا يكتفي في كتاباته بالرجوع إلى المصادر العربية المطبوعة، وأن يبحث في التراث المخطوط الذي لم ينشر بعد عن كل ما له صلة بالموضوعات التي يكتب فيها، علَّه يجد في تلك المخطوطات ما يوضح غامضًا أو يكمل ناقصًا. وكان طبيعيًّا أن تكون المخطوطات العربية في أوليات اهتمامه. وقد رجع الرجل إليها، وأفاد منها، وأثرى كتاباته التاريخية بما أمدّته به من معلومات؛ ذلك أنه لم يكن يكتفي بما نشر من ترجمات غربية للنصوص الشرقية، وإنما كان يلزم نفسه بالرجوع إلى تلك النصوص في لغاتها الأصلية، وكان يطالب المؤرخ الغربي بالرجوع بنفسه إلى تلك الأصول؛ لأن قراءة النص في لغته الأصلية تكشف عن أشياء قد لا تبوح بها الترجمات التي تتفاوت فيما بينها في درجة الدقة في نقل المعنى الذي أراده المؤلف.

وانطلاقًا من هذه القناعة، قرر كاهن أن ينشر بعض النصوص العربية المخطوطة التي رجع إليها، والتي لم يسبق نشرها، فأسهم بذلك فيما يُعرف بعلم تحقيق النصوص.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن للمستشرقين جهودًا مشكورة في هذا المجال، وإلى أنهم وضعوا قواعد وضوابط لهذا العلم، بعض هذه الضوابط لها أصول راسخة عند علماء الحديث، الذين اهتموا اهتمامًا بالغًا بتوثيق النصوص للتثبت من صحة ما روي عن النبي ﷺ، وبعضها مستحدث أضافوه ووضعوا له قواعده؛ كإثبات الخلافات بين النسخ المخطوطة للكتاب، وكالتقديم للنص المحقق بدراسة عن المؤلف والكتاب، وكإعداد الكشافات Indexes التي تحلل محتويات النص، وتستخرج دقائقه، وترتبها ترتيبًا هجائيًا يسهل على الباحث التعامل معه والإفادة منه، والوصول إلى المعلومة التي يريدها في النص في أسرع وقت وبأقل جهد.

ومعنى هذا أن كاهن قد سبقته جهود للمستشرقين في تحقيق النصوص أفاد من مناهجها وسار على دربها.

ومع ذلك، فلا خلاف في أن كاهن مؤرخ يجيد الغوص في بحار التاريخ العربي، ويستخرج منها لآلئ ظلت مستقرة في الأعماق لا يلتفت إليها أحد، لآلئ تبدو صغيرة في حجمها، ولكنها كبيرة في قيمتها.

ففي سنة 1938 نشر في المجلة الآسيوية Journal

موجز تاريخ العظيمي[1]. ونشر في مجلة المعهد Asiatique الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة **صفحات تاريخ قديمة عن آخر الخلفاء الفاطميين**. وفي سنة 1948 نشر في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق **تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء**، وهي رسالة في الأسلحة، كتبها الطرسوسي لصلاح الدين الأيوبي. وفي سـنة 1950 نشر في مجلة كلية الآداب باستراسبورج نصًّـا لسعد الدين محمد بن حمويه الجويني يتصل بالحروب الصليبية. وفي العام التالي نشر في مجلة الفنون الإسلامية Arts Islamica وثائق عن بعض الصناعات العراقية في أوائل القرن الحادي عشر. ونشر في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق نصًّا عن الري في العراق في مطلع القرن الحادي عشر، مقتطفًا من كتاب **الحاوي للأعمال السلطانية ورسوم الحساب الديوانية**.

وفي سنة 1952 نشرت له مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن **رسائل ضياء الدين بن الأثير الجزري**. وفي عام 1958 نشر **أخبار الأيوبيين** للمكين بن العميد في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق. وفي سنة 1960 نشر في مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مقتطفات من كتاب **تجريد سيف الهمة لاستخراج ما في ذمة**

(1) من المؤرخين الذين ظهروا في بواكير الحروب الصليبية (– 532 هـ).

الذمة لعثمان بن إبراهيم النابلسي تحت عنوان: **تواريخ قبطية لقاضي من العصور الوسطى**. وبعدها بعامين نُشر له في كتاب تذكاري عن ليـڤـي بروڤـنسال، صدر في باريس نصّان عن العلاقات بين الموحدين والشرقيين.

وفي سنة 1964 نشر في مجلة الفنون الآسيوية Arts Asiatiques نصًّا غير منشور عن الطراز المصري. وفي العام التالي صدر في ليدن كتاب تذكاري عن أ.ر. جب، شارك فيه كاهن بنشر مقتطفات من **تاريخ ابن القلانسي** خاصة بسوريا. وفي عام 1970 نشر مختارات من كتابات عبد اللطيف البغدادي في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق. وفي عام 1977 نشرت له المجلة نفسها **وصية الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى ابنه توران شاه**. وفي سنة 1986 نُشر له في القاهرة **المنتقى من كتاب المنهاج في علم خراج مصر**. لأبي الحسن المخزومي في ملحق **حوليات إسلامية**. كما نشرت له مختارات من **التاريخ الصالحي** لابن واصل في كتاب تذكاري عن ديفيد أيالون بعنوان **دراسات في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**[1].

وتلك أمثلة لما نشره كاهن من نصوص التراث العربي،

---

(1) Studies in Islamic History and Civilization.
وقد صدر في القدس وليدن.

وهي تدل على أن صلته بهذا التراث بدأت منذ بواكير حياته العلمية، واستمرت حتى سنوات عمره الأخيرة. وتدل في الوقت نفسه على سعة علمه بهذا التراث، وعلى أنه غواص ماهر يجيد التقاط نفائس الأشياء، وأنه وإن كان تخصصه الأول هو الحروب الصليبية، أو العلاقة بين الشرق والغرب في تلك الفترة، يليه في المرتبة الاهتمام بالأوضاع الاقتصادية في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، إلا أن دائرة اهتمامه اتسعت لتشمل مجالات أخرى، كالأسلحة والفنون.

وإذا كنا نقول بملء الفم إن كاهن يرجع له الفضل في نشر نصوص متخصصة كانت مجهولة، فأخرجها إلى الضوء بعد أن كانت مخطوطات حبيسة على رفوف المكتبات التي تقتنيها، وبذلك أتاحها للباحثين، فإن من الصعب أن نقول إن الرجل قد حققها بالمعنى الدقيق لكلمة «التحقيق»، وبالأسلوب الذي تواضع عليه محققو كتب التراث العربي. فهو قلَّما ينشر نصًا كاملاً، وإنما يبيح لنفسه أن يختار من المؤلفات التي يتصدى لنشرها ما يراه مهمًا من وجهة نظره فينشره ويهمل بقية النص. وذلك غير مقبول في مجال التحقيق، فليس من حق المحقق أن يتصرف في النص، أو

أن يختصره، أو يجتزئ منه، أو يعدّل فيه؛ لأن أمانة الأداء تقتضي أن يقدمه للقارئ كما أراده مؤلفه. وإذا فقدت نسخة المؤلف تصبح مهمته أن يقدم النص في صورة أقرب ما تكون إلى الصورة التي خرجت من تحت يد المؤلف، وأن يخرجه بأسلوب عصري تراعى فيه الفقرات، وتُستخدم فيه علامات الترقيم التي تساعد على قراءة النص قراءة سليمة، وتُضبط فيه الكلمات التي يمكن أن تلتبس على القارئ. وهذا ما لم يلتزم به كاهن فيما نشره من نصوص التراث العربي.

ففي مقدمة **تبصرة أرباب الألباب** يقول: «نحن لا نقدم النص الكامل للرسالة، بل المقتطفات التي تتوافق في مجملها مع الأجزاء التي تصف الأسلحة التي كانت مستخدمة فعليًا في عهد صلاح الدين الأيوبي». وينصّ صراحة على أنه استبعد ما في النص من إسهاب، ومن اقتباسات شعرية وأدبية ودينية، ومن أدوات كانت موجودة قبل عصر صلاح الدين، ولم تمارس في عصره. وهذا الذي فعله كاهن يخرجه من زمرة المحققين.

صحيحٌ أنه كان يترجم النص إلى الفرنسية ليستفيد منه الباحثون والمستشرقون من أمثاله، وصحيح أنه كان يستهل

معظم ما نشره من النصوص بمقدمة عن الكتاب ومؤلفه، ولكنه نشر نصوصًا بلا مقدمات، مثل **المنتقى من كتاب المنهاج**. ومقدماته – إن وجدت – يغلب عليها الإيجاز، فمعظمها لا يزيد عن صفحتين أو ثلاث لا تفي بمتطلبات التقديم للنص.

ففي تعريفه بالطرسوسي – مثلاً - في مقدمة **تبصرة أرباب الألباب** لا يذكر غير اسمه ونسبه، ويكتفي بالقول بأنه لم يجد شيئًا غير الاسم الوارد في بداية الرسالة ونهايتها، ويضيف قائلاً: «ويبدو أن عرقية المؤلف تشير إلى انتسابه إلى الأرمن الذين استقروا في مصر خلال القرن الثاني الفاطمي، ويبدو أنه كان يعيش في الإسكندرية»، ويصف أسلوبه بأنه بسيط وعملي بشكل عام، ويغلب عليه السجع.

وفي تقديمه لـ **وصية الملك الصالح أيوب إلى ابنه توران شاه** يذكر أن الصالح أيوب فقد ابنه الأكبر في ظروف مأساوية، ولم يبق له إلا توران شاه، فاضطر إلى توريثه المُلك رغم ضعف شخصيته وعدم قدرته على تصريف الأمور، وأنه كتب وصيته هذه لحماية الابن من أخطائه، وممن يحيطون به من المستشارين.

وفي مقدمته لكتاب **أخبار الأيوبيين** – وهي من أطول المقدمات التي كتبها- يصف المؤلف بأنه مؤرخ قبطي، قدِمت عائلته من بلاد ما بين النهرين إلى مصر في عهد الخليفة الفاطمي العاشر الآمر بأحكام الله، وأنه عاش في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، واشتغل بالتجارة، وتولى وظائف كنسية وإدارية، وأنه غادر مصر إلى دمشق سنة 652هـ، ثم إلى صور سنة 658، وبعد خمسة أشهر عاد إلى دمشق، وأنه سُجن لفترة طويلة، ومات بعد وقت قصير من إطلاق سراحه في عام 672هـ. ويمتدحه بتجرُّده الطائفي اللافت للنظر، وينعت أسلوبه بالإيجاز وعدم الاهتمام بالتفاصيل، وبوضوح اللهجة المصرية فيه.

ومعلوم أن مقدمات النصوص المحققة تختلف عن مقدمات الكتب المؤلَّفة في بنيتها وفي وظائفها؛ فمهمتها الأساسية التعريف بالمؤلف والكتاب، والتثبُّت من صحة نسبة الكتاب إلى مؤلفه، وبيان قيمته ومكانته بين الكتب المؤلفة في مجاله، وتأثره بمن سبقه وتأثيره فيمن أتى بعده، وحصر النُّسخ المخطوطة المتاحة منه في مكتبات العالم، واختيار النسخة الأُم التي يتخذها المحقق أصلاً، والنُسخ الأخرى المعتمدة التي يقابل عليها، ويثبت خلافاتها عن

هذا الأصل، وبيان أماكن تلك النُسخ، ومبررات اختيارها، والنُسخ التي استبعدها، ومبررات استبعادها، والمنهج الذي اتبعه في تحقيق النص. وهذا ما لم يلتزم به كاهن.

صحيحٌ أنه كان ينوِّ بأهمية النص الذي ينشره دون مبالغة أو تزيُّد، كما فعل في مقدمته لـ **وصية الملك الصالح أيوب** التي نشرها بالاشتراك مع إبراهيم شبوح، حيث أشارا إلى أن هذه الوصية تعدّ وثيقة لها أهمية تاريخية كبيرة، وإلى أن فيها نبرةً إنسانية قلَّما نجدها في أمثالها من الرسائل، وختما هذه المقدمة بأن المعلومات التي نستقيها من تلك الوصية، وإن كانت تبدو بسيطة أحيانًا؛ إلا أنها تتميز بالدقة والصدق والأصالة.

وفي تقديمه لـ **تبصرة أرباب الألباب** يذكر أن هذه الرسالة منها نسخة في مكتبة البودليانا بأكسفورد، وصفت في فهرس المكتبة بشكل سيئ لم يلفت إليها الانتباه، رغم أهميتها التي ترجع إلى تاريخها المتقدم، وإلى ما حوته من معلومات.

ولكنه لم يكن يتردد في أن ينتقص من أهمية بعض النصوص التي نشرها، فهو يصف **أخبار الأيوبيين** بأنه ليس مصدرًا أصيلاً، وأنه لا يرقى في أهميته إلى مستوى مؤلفات

معاصريه كابن واصل وسبط ابن الجوزي اللذيْن يعدَّان المصادر الأساسية للمعلومات، وأن مؤلفه كان في بعض المواضع ينقل نقلاً حرفيًّا، وفي بعضها ينقل بتصرُّف من **التاريخ الصالحي** لابن واصل، وأنه لم يقدم تاريخًا كاملاً للفترة التي غطاها، وكل ما أضافه ملاحظات بسيطة عن البطاركة الأقباط، ويردف قائلا: ومع ذلك فهو يحتل مكانة مرموقة بين المصادر الثانوية، وجميع المؤلفين الذين جاءوا بعده كالنويري وابن دقماق وابن الفرات والمقريزي رجعوا إليه.

ومع أن كاهن كان يحدد النُسخ المخطوطة التي رجع إليها في حالة وجود أكثر من نسخة من الكتاب الذي يريد أن ينشره، ويحدد النسخة التي اختارها أصلاً. كما فعل في مقدمته لـ **أخبار الأيوبيين** التي أشار فيها إلى رجوعه إلى أربع نُسخ، منها نسخة في أستانبول، ونسختان في البودليانا بأكسفورد، ونسخة في المتحف البريطاني في لندن. وقد قارن فيها بين هذه النُسخ، وبيَّن النسخة الكاملة والنسخة الناقصة، والنسخة المكتوبة بخط واضح، وتلك التي كتبت بحروف متصلة غير واضحة، والنسخة التي تكثر فيها أخطاء الناسخ، أو التي أضاف إليها الناسخ كلمات من عنده للتوضيح، وذكر تواريخ تلك النُسخ، ونصّ على أن النسخة

التي اختارها أصلاً هي نسخة أستانبول، ووضح أسباب هذا الاختيار. إلا أنه لم يفعل ذلك في أكثر المؤلفات العربية التي نشرها، مع أن استقصاء الأصول المخطوطة للنص المراد تحقيقه موضع اتفاق بين المحققين.

ففي المقدمة التي كتبها لـ **وصية الملك الصالح أيوب** يقول إنه ينشرها عن جزء مخطوط لم ينشر بعد من كتاب **نهاية الأرب في فنون الأدب** للنويري، ويذكر أنه وجد لها نسختين مخطوطتين لا يكاد يوجد فرق بينهما، وأنه ترك للمسؤولين عن الطبعة الكاملة للكتاب مهمة البحث عن المخطوطات الأخرى لهذه الوصية.

وفي مقدمته لـ **أخبار الأيوبيين** يقرر أن أي طبعة معتبرة للكتاب لابد أن تجمع كل أصوله المخطوطة، وألا تقتصر على المخطوطات الأربعة التي رجع إليها.

والمحقق لا يكتفي بإثبات الخلافات بين النُسخ، وإنما يضيف إلى ذلك جهداً علميًا يتمثل في التعريف بالأماكن والأعلام الواردة في النص، وفي شرح ما غمض من الألفاظ والمصطلحات، وفي تخريج النصوص التي نقلها المؤلف عن غيره، ونسبتها إلى المصادر التي أُخذت عنها، والتعليق على آراء المؤلف التي تحتاج إلى تعليق. ويتبع

النص – عادة – بما يلزمه من كشافات تبرز دقائقه وتيسر التعامل معه والإفادة من محتوياته.

وشروح كاهن وتعليقاته – في معظمها – محدودة للغاية، وقد نصّ صراحة في مقدمة **أخبار الأيوبيين** على أنه قصد أن يكون الشرح والتعليق على النص محدودًا. ومع أنه ألحق بالمؤلفات العربية التي نشرها بعض الكشافات، وخاصة كشاف الأعلام وكشاف الأماكن اللذيْن نجدهما في أغلب ما نشره من نصوص، ومع أنه أضاف كشافات أخرى؛ مثل كشاف الاصطلاحات والموضوعات، الذي ختم به **المنتقى من كتاب المنهاج**، إلا أنه نشر نصوصًا بلا كشافات؛ مثل **تبصرة أرباب الألباب**، و**وصية الملك الصالح نجم الدين أيوب**.

وعلى ضوء كل ما تقدم، لا نستطيع أن نصف كلود كاهن بأنه كان محققًا بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكننا نقول – مطمئنين – إنه كان ناشرًا لبعض نصوص تراث العرب التاريخي. وليس ذلك تقليلاً من شأنه؛ لأن اختيار نصوص دقيقة وشديدة التخصص كتلك التي اختارها عمل يتطلب علمًا وخبرة، ونشرها وإتاحتها للباحثين عمل يستحق الشكر والتقدير.

جـ ـ كاهن ببليوغرافيًا

الببليوغرافيا في أبسط معانيها هي حصر الإنتاج الفكري في موضوع معين. ومن حق الببليوغرافي أن يحدد أنواع أوعية المعلومات التي يغطيها (كتبًا كانت، أو مقالات دوريات، أو أحاديث إذاعية، أو غيرها). ومن حقه أن يحدد اللغات التي سيغطيها، وأن يحدد فترة زمنية أو منطقة جغرافية معينة لا يتجاوزها، شريطة أن يوضح تلك الحدود وطريقة تنظيم المادة التي جمعها في مقدمة عمله الببليوغرافي.

وللمستشرقين جهود قيِّمة في هذا المجال. ويكفي أن نذكر **المكتبة العربية** Bibliotheca Arabica التي أصدرها باللاتينية كريستيان دي شنورر Christianus de Chnurrer في الفترة من سنة 1796 إلى 1806، وأعاد إصدارها في سنة 1811 في طبعة مزيدة ومنقحة أحصى فيها المؤلفات العربية التي طبعت في أوروبا فيما بين عامي 1505 و1810.

وفي عام 1840 أصدر زنكر J. T. Zenker بالفرنسية عملاً ببليوغرافيًا اختار له عنوانًا أوسع، وهو **المكتبة الشرقية** Bibliotheca Orientalis، وحاول أن يغطي فيه كل الكتب الشرقية التي نشرت في الشرق والغرب منذ ظهور الطباعة

حتى سنة 1840، سواء كان مؤلفوها من الشرقيين أم من الغربيين، ولكنه لم يستطع أن يرتفع إلى مستوى طموحه، فاعتور عمله النقص، ولم يسلم من النقد.

وفي عام 1888 أصدر لوسيان شيرمان Lucian Schermann في برليـــن دورية باسم **ببليوغرافيا شرقية** Orientalische Bibliographie حاول أن يرصد فيها كل ما نشر في مجال الاستشراق والدراسات الإسلامية باللغات الشرقية والغربية، سواء صدر في الغرب أو في الشرق. واستمرت هذه الدورية في الصدور حتى توقفت سنة 1922 لاستحالة استيعاب المجال بهذا الاتساع.

وفي محاولة لسدّ الفجوة بين عمل شنورر الذي انتهى بسنة 1810، وعمل شيرمان الذي بدأ بسنة 1887، أصدر ڤيكتور شوڤان Victor Chauvin **ببليوغرافيا بالمؤلفات العربية أو المتعلقة بالعرب، المنشورة في أوروبا المسيحية من 1810 – 1885** Bibliographie des Ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes Publiès dans l'Europe Chrétienne de 1810 à 1885 استمرت في الصدور من سنة 1892 إلى سنة 1922. وقد أراد بها جامعها أن تكون أداة حصر ببليوغرافي شامل لكل ما طبع في أوروبا عن العرب والمسلمين.

تلك نبذة تلقي بعض الضوء على جهود المستشرقين في مجال الضبط البيليوغرافي للإنتاج الفكري لأهل المشرق. ولقد تنبه كاهن منذ بداية حياته العلمية إلى أهمية الأدوات البيليوغرافية، فنشر في سنة 1936 دراسة عن تواريخ العرب المتعلقة بسوريا ومصر والعراق منذ الفتح العربي إلى الاحتلال العثماني في مكتبات أستانبول[1]. وفي سنة 1982 نشر في باريس كتابًا بعنوان **مدخل لتاريخ الشرق الإسلامي في العصور الوسطى من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر : المنهجية والضبط البيليوغرافي** Introduction à l'histoire de l'Orient musulman médiéval (VII^{e}-XV^{e}): Méthodologie et elements de bibliographie رصد فيه المؤلفات التي نشرها المستشرقون عن العرب والمسلمين في اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها. ونشر فيه مصورات لوثائق ونقوش ومسكوكات تتعلق بتاريخ العرب والمسلمين.

وفي الفترة الممتدة بين هذين العملين أصدر جين سوڤـاجيه كتابًا بعنوان **مدخل لدراسة التاريخ الإسلامي**؛

---

(1) نشرت في العدد العاشر من مجلة **الدراسات الإسلامية** Revue des Etudes Islamiques ص 333 - 362.

دليل ببليوغرافي Introduction à l’histoire de l’Orient Musulman وجاء كاهن فنقّح الكتاب، واستكمل نواقصه، وحدَّث معلوماته، وأجرى عليه تصويبات، وأضاف إليه إضافات جعلت منه كتابًا جديدًا صدر سنة 1961.

ولأهمية هذا الكتاب وثرائه لم تكد تمضي أربع سنوات على صدور تلك الطبعة حتى صدرت لها في سنة 1964 ترجمة إنجليزية نهض بها مركز دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، بعد أن أضيفت إليها مواد جديدة تلبي احتياجات الناطقين بالإنجليزية[1]. وقد قدم له كاهن بمقدمة تحدث فيها عن جهده في تنقيح الكتاب وتحديثه، فقال:

«كان من الممكن أن أقتصر على عمليتي الإضافة والاستبعاد الببليوغرافي، وهما عمليتان يفرضهما مرور الزمن. ولو أني فعلت ذلك لكان في ذلك احترام للنص كما وضعه سوفاجيه، ولابتعد عن مقاصده وحاجات القراء. وكان أمامي أيضًا أن أستعيض عن الكتاب بمؤلَّف جديد

---

(1) قام بترجمة هذه الطبعة إلى العربية عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب، ونشرها المجلس الأعلى للثقافة في مصر سنة 1998 ضمن المشروع القومي للترجمة بعنوان: مصادر دراسة التاريخ الإسلامي؛ دليل ببليوغرافي.

تمامًا، وهو أمر لعله كان أيسر من بعض الوجوه، فمن المؤكد أن سوفـاجيه لا يقبل أن يكون الحدّ من حرية الأحياء ثمنًا لاحترام الأموات. ولكن عيب هذه الطريقة أنها تعني الاستغناء عن أجزاء من النص الأصلي ما زالت صالحة. لذا قررت أن أتبع نهجًا مركبًا، فعبَّرت عن وجهات نظري، وإن لم تتطابق مع وجهات نظر سوفـاجيه دائمًا، بل قد تتناقض مع بعضها، أو على الأقل مع آرائه التي أبداها سنة 1943. وفي الوقت نفسه أبقيت على أجزاء بعينها، وخاصة في القسم الأول من الكتاب. وقد نتج عن ذلك أن أصبح بقاء اسم سوفـاجيه على صفحة العنوان لم يعد له ما يبرره. ومع ذلك فإن مبررات حذفه أضعف من مبررات الإبقاء عليه. فالكتاب الذي بين أيدينا، وإن لم يكن هو كتاب سوفـاجيه بعينه، إلا أنه ما كان ليرى النور بدون سوفـاجيه، ولولاه لما خرج على هذا النحو.

ومع أنني أعرف أن سوفـاجيه ما كان ليرضى عن بعض فقراته، إلا أنني كنت أتمثله دومًا في كل ما كتبت. وكل ما أستطيع أن أفعله الآن هو أن أتحمل مسؤولية ما كتبته أمام أصدقائه وزملائه وتلاميذه وأبنائه، متمنيًّا ألا أكون قد قصَّرت كثيرًا عن مثلي الذي أحتذيه، وأن يخرج الكتاب

على الصورة التي كان يمكن أن يخرج عليها لو كان الأجل قد أمهل صاحبه ليعيد تنقيحه»[1].

«وقد حرصنا في الفصول التاريخية وتفريعاتها على ذكر المصادر أولاً، ثم المؤلفات الحديثة بصورة أكثر اطرادًا مما فعل سوڤـاجيه. وقد حاولنا أن نوسع نطاق الموضوعات، وأن نفصِّل في بعض المواضع بدرجة أكبر مما فعل سوڤـاجيه لكي نتمشى مع تطور الاهتمامات الحديثة، ولنكون أقرب إلى الكمال. وحاولنا في الوقت نفسه أن نبرز نقاط الضعف في معلوماتنا، وأن نحدد الخطوط التي ينبغي توجيه البحوث إليها والتشجيع على دراستها. وهكذا فقد تضخم الكتاب، على الرغم من حرصنا على ألا يطول كثيرًا عن الأصل... ولتحقيق هذه الغاية استبعدنا بعض المعلومات الثانوية، واتبعنا في الكتابة أسلوبًا أكثر تركيزًا، وهو أسلوب مجهد لمن يطالع الكتاب من أوله لآخره، إلا أنه مقبول في الأقسام الببليوغرافية التي قصد بها ذكر المراجع أساسًا»[2].

والكتاب، وإن كان عنوانه يدخله في دائرة التاريخ، إلا

(1) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ص 13 – 14.

(2) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ص 15.

أنه ينطلق إلى آفاق أرحب، فيرصد الكتابات التي تناولت كل ما يتصل بمنطقة الشرق الأدنى من أحوال ثقافية ودينية واجتماعية واقتصادية على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان.

وهو لا يقتصر على مصادر دراسة المشرق الإسلامي، وإنما يشمل مصادر دراسة تاريخ المغرب الإسلامي أيضًا. وقد أشار كاهن إلى ذلك فى مقدمة الطبعة الإنجليزية، فقال: «ولابد لي هنا من توضيح نقطة كانت مثارًا للنقد، فقد دهش البعض لإدراج فصل عن المغرب الإسلامي ضمن كتاب عن تاريخ المشرق الإسلامي. ولا أجد داعيًا لأن أكرر أن العنوان لا يعبر عن مواجهة بين الشرق والغرب في نطاق الإسلام، وإنما يتناول العالم الإسلامي شرقه وغربه، ويستبعد الشرق والغرب غير الإسلاميين»[(1)].

والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام: أولها عن مصادر التاريخ الإسلامي، ويضم تسعة فصول؛ منها فصل عن المصادر الروائية، وآخر عن المصادر الفقهية والإدارية، وثالث عن المصادر الأدبية والأثرية، ورابع عن كتب الجغرافيا والرحلات، وهكذا. والقسم الثاني: عن أدوات البحث والمؤلفات العامة؛ ويضم أربعة فصول. والقسم

(1) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ص 11-12.

الثالث: ببليوغرافيا تاريخية، وفيه اثنا عشر فصلاً تغطي المصادر التاريخية منذ العصر الجاهلي حتى ظهور الإمبراطورية العثمانية. وخصص الفصل الأخير في هذا القسم للكتابات التي تناولت تأثير الحضارة الإسلامية على أوروبا.

وهو لا يقتصر على رصد ما كتب عن التاريخ السياسي، وإنما يتناول أيضًا ما كتب عن النظم الإدارية والأحوال الاقتصادية والدينية والأدبية والفنية. وكل فصل من الفصول يستعرض ما صدر حول الموضوع من كتب ومقالات دوريات بمختلف اللغات الأوروبية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها) والشرقية (العربية والفارسية والتركية)، بل إنه يحدد فصولاً من كتب بعينها، ولا يقتصر على ذكر المراجع، وإنما يقيِّمها تقييمًا يدل على سعة الاطلاع والإلمام الواسع بعدد كبير من اللغات الشرقية والغربية.

ولكن الكمال في الأعمال الببليوغرافية ضرب من المستحيل، لسبب بسيط جدًا هو عجز أي فرد مهما بلغت إمكاناته عن الوصول إلى كل ما نشر في الموضوع الذي يتناوله. يضاف إلى ذلك أن المطابع في الشرق والغرب تقذف كل يوم بالآلاف من الكتب والدوريات التي لم يكن

من السهل متابعتها في زمن كلود كاهن. وهذا هو السبب فيما يصيب الأعمال الببليوغرافية من تقادم، وما تحتاج إليه من تحديث مستمر. ولهذا لا نستطيع القول بأن الكتاب يغطي كل ما صدر في مجاله حتى السنة التي طبع فيها، أو قبلها بسنة أو سنتين. ولا أظن أن كاهن نفسه تصوَّر يومًا أنه غطى المؤلفات الإنجليزية – مثلاً – بنفس القدر الذي غطى به المؤلفات الفرنسية، أو أنه غطى المؤلفات العربية أو التركية أو الفارسية بنفس الدرجة التى غطى بها المؤلفات الغربية، مع أن هذه المؤلفات تعد مصادر أصيلة لكثير من الموضوعات التي تناولها الكتاب[1]. ولكاهن بعض العذر في ذلك، فكتابه موجَّه للقارئ الغربي بالدرجة الأولى، وللقارئ الفرنسي بصفة خاصة. وهذا القارئ – في معظم الأحوال – قد يتعذر عليه قراءة نصوص بغير الفرنسية، وقد تستعصي عليه النصوص المكتوبة باللغات الشرقية، عربية كانت أو فارسية أو تركية.

والكتاب ليس قائمة ببليوغرافية بالمعنى الدقيق للكلمة، فالقوائم الببليوغرافية ترتب –عادة– ترتيبًا موضوعيًا،

(1) انظر على سبيل المثال الفصل العاشر وعنوانه: معلومات عامة – التواريخ والمراجع، ففيه أُغفلت المصادر العربية إلى حد كبير.

وتحت كل موضوع ترتب هجائيًا بالمؤلف أو بالعنوان، وتلتزم بذكر بيانات معينة عن كل عمل تحصيه كالطبعة، ومكان النشر واسم الناشر، وتاريخ النشر، وعدد الصفحات، وغير ذلك مما يسمى ببيانات الوصف الببليوغرافي. وتختم عادة بكشافات هجائية تيسِّر الوصول إلى دقائقها المطمورة في ثناياها.

ولقد أحسن المؤلفان صنعًا حين وضعا للكتاب عنوانًا لا يلزمهما بما يلتزم به الببليوغرافيون، وأضافا إليه عبارة «دليل ببليوغرافي» كعنوان فرعي. فهو أقرب إلى أن يكون موسوعة ببليوغرافية متصلة الحلقات، فأنت حين تقرأ فيه تجد من يأخذ بيدك ويحكي لك حكاية الموضوع الذي تبحث عنه، ويدلك على المراجع التي تناولته، ويعطيك عن كل منها من البيانات ما يكفي للوصول إليه، فنراه يذكر طبعات الكتب وتواريخ نشرها، ويذكر أسماء الدوريات التي نشرت فيها المقالات، والأعداد وتواريخها، وقد يذكر الصفحات التي يشغلها المقال. وبذلك تخلَّص الكتاب مما تتصف به الأعمال الببليوغرافية العادية من رتابة، وتحرر من القيود التي يتقيد بها الببليوغرافيون ومنها – على سبيل المثال – عدم تقييم الأعمال التي يذكرونها على أساس أن

هذا التقييم مهمة المتخصصين، فنراه يقيِّم المؤلفات التي يذكرها، ويحدد درجة أهمية كل منها، وأحيانًا يوصي بالرجوع إلى طبعات بعينها. ومن الأمثلة على ذلك أنه في معرض الحديث عن علم النُّمِّيَّات (المسكوكات) في الفصل الثامن يصف كتاب **دليل المسكوكات الإسلامية**، لكودرنجتون بأنه غير كامل ولا متقن، ولا يمكن الاعتماد عليه[1]. وفي معرض الحديث عن التقويم في الفصل الحادي عشر الخاص بالجغرافيا والطبوغرافيا التاريخية والأجناس يصف كتاب **جداول التقويم الهجري وما يقابلها من التقويم الميلادي**، الذي ألفه هيج بالإنجليزية بأنه «أنسب الكتب للاستعمال، فصغر حجمه يتيح لدارسي النقوش أن يحملوه في جيوبهم ليستعينوا به في مواقع عملهم»[2].

وفي معرض الحديث عن الحياة اليومية لسكان الحضر في الفصل الثالث عشر يصف كتاب مظاهري **الحياة اليومية للمسلمين في العصور الوسطى**، بأنه «أيسر الكتب منالاً»، وينبه «إلى ما فيه من تعميمات متعجلة وسطحية في التوثيق»[3].

---

(1) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ص 97.

(2) ص 136.

(3) ص 155.

وعند حديثه عن النظم السياسية والإدارية في هذا الفصل يذكر[1] دراسة تيان E. Tyan لمؤسسات القانون العام الإسلامي، ويصفها بأنها «تقدم معلومات مفيدة للمتخصص، إلا أنها تفتقر إلى النضج والمنهجية. لذا فقد تُضلل الباحث المبتدئ».

ويقول عن كتاب **النظم الإسلامية** لعبد العزيز الدوري: إنه «أكثر تحديدًا في مجاله، لأنه ينصبُّ على العصر العباسي بصفة خاصة، كما أنه يمكن الثقة به، والاعتماد عليه أكثر من سابقه».

وتحت عنوان **الخلفاء الراشدون والأمويون** في الفصل السادس عشر يصف كتاب **الإمبراطورية العربية وسقوطها** لفلهاوزن بأنه «لا تزال له الريادة بين الدراسات الحديثة عن العصر الأموي، على الرغم من افتقاره إلى وضوح العرض، وحاجة بعض الأفكار الواردة فيه للمراجعة».

ويصف كتابات لامانس عن العصر الأموي بأنها تتميز «بمزيد من الجاذبية وحسن التوثيق، ولو أن تفسيراتها غالبًا ما تتسم بالتفكك»[2].

---

(1) ص 158.

(2) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ص 211.

وفي الفصل السابع عشر الخاص بالخلافة العباسية والدول التالية يقول: «وقد قام كاتب مسيحي مصري، هو يحيى الأنطاكي، الذي عاش بأنطاكية في النصف الأول من القرن الحادي عشر بنظم كتاب تاريخ في غاية الأهمية يشمل كلاًّ من التاريخ البيزنطي والإسلامي، ويتميز بسعة الاطلاع على العلاقات بين الإمبراطوريتين. وأفضل طبعاته هي تلك التي تضم ترجمة فرنسية لكراتشكوفسكي وفاسيلييف»[1].

وفي الفصل الثالث والعشرين الخاص بالإمبراطورية العثمانية يقول إن أفضل تاريخ عن التيمار (امتياز الأراضي للجنود) هو مقال دني بدائرة المعارف الإسلامية[2].

ومع أن هذه التقييمات تفيد الباحثين، خاصة إذا صدرت عن عالم متخصص يُحسن تقدير الأشياء، إلا أننا لا نستطيع أن نقول إن كاهن قد لازمه الصواب في كل ما أبداه من آراء. ومثال ذلك أنه في معرض حديثه عن الدين في الفصل الثالث عشر نراه يقول:

«فيما يتصل بالموضوعات الدينية، فالكتاب الذي يعتبر

(1) ص 219.
(2) ص 334.

بداية عصر فكري جديد، وينبغي الرجوع إليه باعتباره نقطة بداية للبحث المنهجي الحديث هو كتاب جولدتسيهر بعنوان **محاضرات عن الإسلام**، وقد ترجمه أرين إلى الفرنسية بعنوان **العقيدة والشريعة في الإسلام**. ومع أن معلوماتنا قد تطورت بعد نشره، إلا أنه لا يزال يحتفظ بقيمته؛ لأنه لم يسبق في ميدانه». ويستطرد قائلاً: «ومن الناحية العملية، فإن كتاب ماسيه بعنوان **الإسلام** يعد أفضل مدخل للموضوع»[1]. ويقول أيضًا: «وليس بين أيدينا عن انتشار الإسلام سوى دراسة كتبها توماس أرنولد بعنوان **الدعوة إلى الإسلام**»[2].

فليس صحيحًا أن كتاب جولدتسيهر عن الإسلام لم يُسبق في ميدانه، وأن كتاب ماسيه أفضل مدخل للتعرف إلى الإسلام، وأن توماس أرنولد هو الوحيد الذي كتب عن انتشار الإسلام. ومن يرجع إلى دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها المعرَّبة يدرك الأخطاء الفادحة التي وقع فيها جولدتسيهر فيما كتبه من مواد في تلك الموسوعة، والتي اقتضت أمانة الترجمة أن تنقل الآراء كما أرادها صاحبها،

---

(1) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ص 162 - 163.

(2) ص 167.

ولكن المتخصصين عقَّبوا على تلك الآراء، ودحضوا كثيرًا منها. ولا يكفي أن يقال إن معلوماتنا قد تطورت بعد نشر كتاب جولدتسيهر، وكان الأَوْلى بكاهن أن يقول إن معلوماتنا التي استقيناها منه قد صُحِّحت. ولا يُقبل من رجل في مثل قامة كاهن أن يوهم قارئه –حتى لو كان غربيًا– بأن كتاب ماسيه أفضل مدخل لدراسة الإسلام، وأن كتاب توماس أرنولد هو المصدر الوحيد للتعرف إلى انتشار الإسلام.

وثمة أمثلة أخرى تدل على أن كاهن جانَبَه الصواب في بعض آرائه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله في الفصل الخامس عشر، الذي خصصه للحديث عن نبي الإسلام محمد ﷺ: «إن دراسة مصادر حياة النبي محمد والفترة التي تلتها مباشرة يجب أن تعتمد في المقام الأول على **تاريخ الإسلام** لكايتاني»[1].

ومن عجب أن رجلاً مثل كاهن يتقن العربية، ويعرف المصادر التاريخية التي كُتبت بها معرفة جيدة، يتجاهل تلك المصادر جملة وتفصيلاً، ويحيل من يريد أن يتعرف إلى

---

(1) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ص 195.

حياة النبي ﷺ والفترة التالية له مباشرة إلى كايتاني في المقام الأول، متجاهلاً **سيرة** ابن هشام، و**طبقات** ابن سعد، و**تاريخ الطبري**، وغيرها من كتب التاريخ الإسلامي التي استعرضها بالتفصيل في دراسته التي نشرت في كتاب **التاريخ والمؤرخون في الحضارة العربية الإسلامية**. صحيح أنه يكتب لقارئ غربي، ولكن الأمانة تقتضي أن ينبه إلى أن المصادر الأصيلة لهذا الموضوع هي المصادر العربية التي استمد منها جولدتسيهر وكايتاني وغيرهما من المستشرقين معلوماتهم، وأن هؤلاء المستشرقين وأمثالهم أصابوا وأخطئوا فيما قدموه لقرائهم من معلومات.

ثانيًا ـ مقتطفات من كتاباته

(1)

ينبغي علينا أن نحذف كلمة «استشراق» من قاموسنا. فليس هناك نوعان من البشر، الأول شرقي والثاني غربي، وإنما البشرية هي واحدة في جوهرها. العلم واحد للشرقي كما للغربي. هناك فرق واحد فقط فيما يخص المستشرق، هو أنه ينبغي عليه أن يبذل بعض الوقت والجهد لكي يتعلم إحدى اللغات الشرقية أو عدة لغات؛ لأنه لم يكتسبها عن طريق الولادة... وينبغي علينا بكل بساطة أن نسقط كل الجدران العازلة التي تفرق بيننا. أقول ذلك على رغم التعددية المفهومة والطبيعية لجهودنا وتصوراتنا. ولحسن الحظ فإن هذه الحواجز والجدران لم تكن في أي يوم من الأيام متعذرة على عملية التجاوز والاختراق.

إني أعترف بأن المستشرقين كانوا قد ركزوا اهتمامهم أكثر مما يجب على بعض الفترات التاريخية أكثر من غيرها. وهي الفترات التي بدت لهم أكثر إشعاعًا وإشراقًا من غيرها.

وهكذا أهملوا فترات تاريخية أخرى أكثر من حيث الزمن، وهي لا تقل أهمية من أجل فهم العالم الحديث للشعوب العربية والإسلامية إذا ما نُظر إليها من وجهة نظر معينة، أو من زاوية أخرى. ولكن ينبغي أن لا نقع في التطرف المعاكس، فلا نهتم إلا بالتاريخ الحديث ونهمل القديم. ذلك أنه من أجل تجريب أفضل لمناهج التحري التاريخي، نجد أن الفترات الحديثة ليست هي بالضرورة الأكثر ملاءمة. فتطبيق هذه المناهج الجديدة على الفترات القديمة قد يعطي نتائج أفضل وأكثر رسوخًا. (نضرب على ذلك مثلاً: طرح المشاكل من خلال مفهوم الطبقة الاجتماعية، أو بالأحرى الطبقات الاجتماعية). فلكي ننمِّي الوعي القومي لشعب ما، ولكي نساهم في انطلاقة ثقافته الجديدة، فإن أفضل وسيلة ليست بالضرورة استخدام تاريخه الحديث، وإنما تاريخه القديم والمنسيّ. وأعتقد أن ابن سينا في الاتحاد السوفياتي، والبيروني في أفغانستان، وجنكيز خان في بلاد المغول، لهم قيمة أكبر بكثير من ورثتهم في القرن التاسع عشر(*).

(*) الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، تأليف محمد أركون وآخرين، ترجمة هاشم صالح. بيروت: دار الساقي، 1994، ص 36 – 37.

(2)

لظهور الإسلام وانتشاره مظهر المعجزة. فبوثبة دين جديد توحد شعبٌ كان إلى ذلك الحين مجهولاً تقريبًا، واستطاع في غضون بضع سنين أن يحتل الإمبراطورية الساسانية برمتها، وجملة المناطق الآسيوية والأفريقية – باستثناء الجزء الغربي من آسيا الصغرى – التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية، ليضم إليها فيما بعد القسم الأكبر من إسبانيا وصقلية، كما ضم – ولو لفترات قصيرة – مناطق أخرى من أوروبا، ودق أبواب الهند والصين وأثيوبيا والسودان الغربي وبلاد المغول والقسطنطينية. انهارت أمامه الدول القديمة، ومن سيحون إلى السنغال بدأت الأديان التي كانت سائدة تتلاشى أمام الدين الجديد الذي يدين به اليوم أكثر من ثلاثمائة مليون مسلم[1]. وتعد الحضارة الجديدة التي انبثقت عن هذه الفتوحات من أكثر الحضارات تألقًا، وقد غدت فيما بعد، ولاعتبارات عديدة، مرشدةً للغرب، بعدما استوعبت هي ذاتها، وأحيت قسطًا كبيرًا من التراث القديم.

(1) تضاعف هذا العدد عدة مرات منذ صدور هذا الكتاب قبل ثلاثة عقود تقريبًا.

منذ ثلاثة عشر قرنًا والتاريخ الإسلامي يمتزج بتاريخنا، سواء في الحرب أو في السلم. وقد نشأت حضاراتنا على الخلفية الأساسية نفسها. ولئن كان ما أنجزنا قد ذهب بعيدًا في اتجاه مختلف جذريًا، فإن المقارنة لابدّ أن تساعد على فهم بعضنا بعضًا.

لهذه الأسباب جميعًا، لابدّ أن يحتل تاريخ العالم الإسلامي مكانةً جُلَّى في ثقافتنا... وعلينا أن نعلم أنه قبل القديس توما، المولود في إيطاليا، كان هناك ابن سينا المولود في آسيا الوسطى، وأن مساجد دمشق وقرطبة سبقت كنائس فرنسا وألمانيا. لابدّ أن نتخلص من الاستخفاف بالشعوب الإسلامية المعاصرة بسبب تراجعها الذي قد يكون عابرًا ومؤقتًا أمام أوروبا التي تتقدم ثقافتها وقوتها بخطى هائلة[1].

يصعب علينا اليوم أن نقدر حق قدره رجلاً كان من جهة أولى مؤسس دين عظيم جديد، وشديد الارتباط بعصره من جهة ثانية. في نظر المسلم العادي، محمد رسول الله، نبي مختار ليبلغ الرسالة إلى الناس. وعلى الرغم من التجميل الذي حفلت به الأحاديث النبوية المتأخرة، فإن

(1) الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية، ص 21 - 22.

محمدًا ليس إلا بشرًا، وهو مثال الإنسان ولا ريب، وليست له أي صفة إلهية. والمؤرخ المنصف يرى أن محمدًا من الشخصيات العظيمة المتفوقة، فقد استطاع بصدق وبشجاعة لا مثيل لهما، أن يرفع في آنٍ معًا، مستوى الحياة الأخلاقية والمستوى الفكري للناس الذين عاش بينهم، وأن يجعل رسالته متلائمة مع طبائع هؤلاء الناس ومع تقاليدهم، وبتفهم وحسّ تنظيمي عميق من شأنهما أن يضمنا لها السلامة والفوز. إن ما ندرك وجوده لدى محمد من رفعة في التفكير ومن قوة في التغلب على العقبات البشرية وعلى العوائق الذاتية، لا يمكن إلا أن يترك تأثيرًا بالغًا في النفوس وينتزع منها الإكبار والإجلال...

إن الرسالة السماوية التي نطق بها النبي محمد، رسول الله، هي تمامًا الرسالة ذاتها التي حملها الرسل الأنبياء قبله، من آدم إلى المسيح الذي هو واحد منهم. فالإسلام، بهذا المعنى، يندرج ضمن أسرة واحدة مع الديانتين التوحيديتين الكبريين اللتين سبقتاه؛ أما الخلافات القائمة بين القرآن والتوراة، فيمكن أن تعزى إلى تحريف في النصوص المقدسة التي كتبها مسيحيون ويهود. على أن محمدًا هو خاتم الأنبياء، ولن يكون بعده نبي حتى تقوم القيامة.

وفيما يخص الشريعة الاجتماعية، رأى بعض المؤرخين المعاصرين في محمد ﷺ مفكرًا اشتراكيًا حتى من قبل ظهور الفكر الاشتراكي. وذاك لعمري خطأ منهجي. فمحمد، شأنه شأن مؤسسي الأديان كافة، لم تكن له عقيدة اشتراكية، بل كانت لديه صرامة أخلاقية، فكان من الطبيعي أن تحمله هذه الخلقية الرفيعة على مكافحة بعض الظاهرات الاجتماعية التي كان يراها عيوبًا في مجتمعه، ولذا كان قادرًا على أن يجتذب إليه أولئك الذين كانوا يعيشون أوضاعًا بائسة.

إن الحس الرفيع الذي كان يحمله محمد في أعماقه هو حس الجماعة مع كل ما يقتضيه من تضامن متبادل بين أفرادها. وفي نظر المسلم بعامة، كما في نظر المسلم اليوم، أن الخطيئة الكبرى هي شق صف الجماعة وضرب وحدتها.

من خلال هذه المفاهيم والتعاليم تعامل محمد مع مجتمعه في الحالة التي كان عليها هذا المجتمع، ودون أن يلجأ إلى أي عمل ثوري سواء ناحية العائلة، أو ناحية المرأة والعبودية، أو ناحية الأوضاع الاقتصادية. وإنما عمل بما من شأنه أن يخفف من شدة وطأة تلك الأوضاع، ويفرض ما هو خليقٌ بأن يضمن العدالة.

ويتضح من الفقرة الأخـيرة كما يتضـح من سيرة حياة النبي أن محمدًا – خلافًا لما كان عليه عيسى المسيح وغيره من مؤسسي الأديان – كان مؤسس ديانة وباني دولة في وقتٍ واحد. لكن أجهزة هذه الدولة كانت بطبيعة الحال لا تزال في حالتها الأولية، ومواردها المالية التي كانت تقتصر على الزكاة التي يتصدق بها المسلمون طوعًا وبمحض إرادتهم لم تكن أكثر من مجرد صندوق عائلي. غير أن المسألة الأساسية في ذلك كله هي أن رجلاً واحدًا استطاع، وللمرة الأولى في تاريخ الجزيرة العربية، أن يفرض كلمته على جميع أبناء الجزيرة العربية. وهي أيضًا، خلافًا للتاريخ المسيحي، حيث جاء المسيح في زمن الإمبراطورية الرومانية يبشر بدين يعطي لقيصر ما لقيصر. إن محمدًا ظهر في مجتمع لا يعرف الدولة، فكان أن أسس دينًا ودولة لا فصل بينهما(*).

(*) الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية، ترجمة حسين جواد قبيسي؛ مراجعة علي نجيب إبراهيم. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 210، ص 35 - 39.

(3)

يمتد الإسلام على مساحة شاسعة من الأرض، وإذا كان يشمل حاليًا جزءًا كبيرًا من آسيا وأفريقيا، فقد كان فيما مضى يضم جزءاً لا يستهان به من أوروبا (أسبانيا وصقلية والبلقان وجنوب روسيا). وفضلاً عن كونه حضارة من حضارات الماضي، فإنه لا يزال يجتذب جديدًا من الأتباع حتى اليوم. ولا سبيل لتتبع تاريخ مثل هذا العدد الكبير والمتباين من الأقطار بطريقة واحدة في كتاب كهذا، فمثل هذا المنهج الطموح لن يفيد كثيرًا.

ولعل أول ما يلفتنا أن دول العالم الإسلامي ليس بينها تجانس على الإطلاق؛ فهناك أقاليم اعتنقت الإسلام في وقت مبكر، وأصبحت من مراكز الثقل الرئيسة للحضارة الإسلامية، وهناك أقاليم أخرى تأخر دخولها في الإسلام، إلا أن المسلمين بها لم يلبثوا أن أصبحوا يمثلون الأغلبية العددية والسيادة الثقافية. ومن ناحية أخرى هناك أقطار دخلت الإسلام حديثًا أو جزئيًا، ولم تقو فيها شوكة الإسلام بحيث يصبح العامل الرئيسي في تطورها التاريخي. وليس من المنطقي أن نتعامل مع هذه الأقاليم جميعًا بطريقة واحدة؛ فجاوة التي تضم ثلاثين مليون مسلم – وهو عدد

يناهز عشرة أضعاف عدد المسلمين في العراق في قمة مجده عندما كانت بغداد المركز السياسي والفكري للعالم – لم تتصل بالإسلام إلا في القرن الرابع عشر للميلاد، ولم تصطبغ به حياتها الاجتماعية، ولم يكن لها دور في المجتمع الإسلامي إلا مؤخرًا. ولا ينبغي بالطبع أن تعامل جاوة بنفس المستوى الذي يعامل به العراق في العصور الوسطى. ومع أننا لن نتعرض للأقطار الإسلامية الخارجية – كالسودان وشرق أفريقيا والهند وجزر الأرخبيل الهندي والصين – اكتفاء بالإشارة إلى انتشار الإسلام في تلك المناطق، إلا أننا سنتناول الإمبراطورية العثمانية (وليس تاريخ شعوب البلقان في حد ذاتها، فقد كانت مسيحية أساسًا)؛ لأنها كانت دولة إسلامية، ولأنها سيطرت على جزء كبير من العالم الإسلامي وأثرت فيه، ولأن عاصمتها القسطنطينية أصبحت أكبر مراكز الثقافة الإسلامية. لذا فالفيصل عندنا هو التاريخ لا الجغرافيا.

ومن بين الأقطار الإسلامية التي سنتناولها بالدرس يمكن تمييز مجموعتين على وجه التقريب: المجموعة الغربية (شمال أفريقيا وأسبانيا في العصور الوسطى، وصقلية لفترة من الزمن)، والمجموعة الشرقية (الجزيرة

العربية وسوريا وفلسطين وبلاد ما بين النهرين ومصر وفارس والدول المتاخـمة لها، وتركيا منذ القرن الحادي عشر وما تلاه). وستستحوذ المجموعة الأخيرة على معظم اهتمامنا لسبب جوهري؛ هو أن الإسلام ظهر في المشرق وكان مركز ثقله دائمًا هناك. ولن نستطيع فهم الإسلام ما لم ندرس الأقاليم الشرقية عن كثب. أما الأقاليم الغربية – باستثناء أسبانيا خلال حقبة قصيرة من تاريخها – فلم تكتسب نفس الأهمية بحكم أنها أقل غنى وأصالةً، مما جعلها تعتمد دائمًا على المشرق الذي يعتبر بالنسبة لها مصدر الوحي والإلهام. وهذا هو السبب الجوهري لتركيزنا على المشرق الإسلامي.

وهناك أيضًا سبب ثانوي، وهو أن شمال أفريقيا ارتبط بأسلوب الحياة الفرنسية لمدة قرن من الزمان، وخلف الباحثون الفرنسيون عنه مؤلفات كثيرة مهمة. فإذا أضفنا إلى هذه المؤلفات الفرنسية مؤلفات الإيطاليين والأسبان ممن استهواهم ماضي بلادهم الإسلامي، أو اهتموا بثقافة المناطق الإسلامية التي وقعت تحت سيطرتهم كالفرنسيين، يتبيِّن لنا أن تاريخ المغرب، وإن لم يكن قد استنفد بعد، إلا أن دراسته أقل تعثرًا من دراسة تاريخ المشرق، مع أن

المشرق كان الأولى بالدراسة أولاً. والواقع أن معظم دول المشرق – باستثناء مصر – لم يفتح باب البحث فيها إلا حديثًا. لذا فإن من تخصصوا في دراستها قليلون. وهذا لا يعني التقليل من أهمية دول المغرب، فما نود التأكيد عليه هو أن من يقصر نفسه على دراسة المغرب، وينظر إلى الإسلام من هناك يشوِّه المنظور التاريخي، ويعمى عن بعض العوامل ذات الأهمية البالغة في تاريخ الإسلام.

وعلى أية حال، فلن نهمل الأقاليم الغربية التي كانت من الناحية السياسية جزءاً من المجتمع الإسلامي، ولم تتوقف عن المشاركة في معتقداته وثقافته. وتاريخ الفاطميين الذين اتجهوا شرقًا في الشمال الأفريقي، ولقوا مصيرهم في مصر يعد دليلاً كافيًا – إن كانت هناك حاجة إلى دليل – على استحالة إغفال تاريخ أقاليم المغرب. يضاف إلى ذلك أن المغرب الإسلامي (وخاصة أسبانيا نظرًا لقربها من أوربا الغربية، وظروف إعادتها للمسيحية حين كانت المسيحية اللاتينية تفتح عيونها على الحضارة) لعب دورًا أكبر من دور المشرق في نقل كنوز الثقافة الإسلامية، وكان له دور حيوي في تاريخ الحضارة ككل.

ودراسة التاريخ الإسلامي يجب أن تخضع لنفس

الأساليب والمواصفات التي تحكم الدراسات التاريخية عامة، وهي الدقة والحذر والنظرة الناقدة الواعية. فلكي يرفض المؤرخ شيئًا لم تثبت صحته، ولكي لا يخلط بين ما هو يقيني وما هو مجرد افتراض، يجب أن يتحلى بالضرورة بصفتين؛ هما: الأمانة وحب الحقيقة، ويجب أن يكون ملمًا باحتمالات التطور والعلاقات المتبادلة بين عناصر التاريخ المختلفة. كما يجب أن تكون لديه المقدرة على أن يضع كل جزء في مكانه من الإطار العام، وأن يرى أوجه التشابه والاختلاف بين المجتمعات المتقاربة. فمؤرخ الإسلام لا يستطيع تجاهل تاريخ الأقطار غير الإسلامية المجاورة إلا بالقدر الذي يهمل به مؤرخو تلك الأقطار تاريخ العالم الإسلامي. ومثل هذه المقارنات تتيح لمؤرخ الدولة الإسلامية أن يعرف أنواع المشكلات التي يواجهها التاريخ الإسلامي، وأن يدرك نقص الدراسات في بعض المجالات كالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وأن يقف على التخلف النسبي في الدراسات المتعلقة بالعالم الإسلامي، على الرغم من وجود كثرة من المؤلفات والباحثين.

وكان عائق اللغة من ناحية، ومسألة تقسيم التواريخ إلى فترات متميزة من ناحية أخرى، سببًا في الانقسام بين

المستشرقين والمؤرخين وكأن هناك نوعين من البشر، وكأن تاريخ الإنسانية ليس تاريخًا واحدًا؛ وكانا أيضًا من أسباب تخلف الدراسات الإسلامية. وقد أدى هذا الانقسام إلى تعميق فكرة أن المستشرقين الغربيين أعطوا الأولوية في دراساتهم للقضايا الأهم من وجهة النظر الغربية، بينما ظل أهل المشرق في غفلة عن تاريخهم زمنًا طويلاً.

ولا شك أن سعة الأفق الغربي من ناحية، وزيادة نشاط الباحثين المحليين في البلاد الإسلامية من ناحية أخرى سيساعدان على تصحيح الأوضاع. وينبغي أن يتعاون المؤرخون والمستشرقون، وأن يدركوا أن الإسلام جزء من تاريخهم، وأن على من يرغبون في التخصص في التاريخ الإسلامي أن يتحملوا مشقة معرفة قدر كافٍ من اللغة العربية وغيرها من اللغات السائدة في الأقطار التي يودّون دراستها. أما المستعربون فعليهم أن يستيقنوا بدورهم أنهم لا يستطيعون أن يصبحوا مؤرخين اعتباطًا، وأن على طلابهم ممن يرغبون في دراسة تاريخ وحضارة الشعوب التي يعرفون لغاتها أو يتعلمونها، أن يتعايشوا مع التاريخ، وأن يتدربوا عليه تدريبًا كاملاً(*).

(*) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي؛ دليل ببليوغرافي. ترجمة عبد الستار الحلوجي وعبدالوهاب علوب. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1998، ص 23 – 26.

(4)

بالنسبة للتاريخ قبل الإسلام، كانت نقطة البداية بطبيعة الحال موجودة في القرآن الكريم، بيد أنها لم تقدم عرضًا كاملاً لما كان يعتبر من المعلومات العامة على نحو أو آخر. وكان من الضروري الحصول على المعلومات من الأحاديث وكتابات غير المسلمين ممن اهتموا بالرسالات السماوية السابقة. وكان من غير المحتمل بطبيعة الحال أن يكون أي كاتب عربي مسلم قد قرأ العهد القديم والعهد الجديد في أصولهما، أو يكون قد عرف التواريخ المسيحية العامة التي تم جمعها في غضون القرون السابقة على الإسلام؛ فقد كان هناك بعض الأهالي الذين اعتنقوا الإسلام ويستطيعون الترجمة، كما حدث بالفعل في الكتابات الفلسفية والعلمية. وفي مجال التاريخ، على أية حال، لا يبدو أنه كانت هناك حاجة كبيرة ولا ملحة إلى ترجمته. وبصفة عامة كان على الكتاب أن يرضوا بالروايات المنقولة شفاهيًّا بواسطة الذين أسلموا من جنسهم، وممن لم يكن لهم بالضرورة اطلاع مباشر على الكتب المقدسة. وعلى أية حال كانوا يميزون بالكاد بينها وبين الكتب الدينية المزيفة التي كانت منتشرة في الشرق آنذاك. وهكذا حدث

أن تشكل أدب كامل من «الإسرائيليات» وقصص الأنبياء.

ولم يكن العرب أقل اهتمامًا بأسلافهم في فترة الجاهلية، الذين كانوا على اتصال بشعوب أخرى تنحدر من إبراهيم عليه السلام؛ ومن ثم وجد أدب مزدوج، مكرس جزئيًا للمعتقدات القديمة، وجزئيًّا للأنساب القبلية، وكان أبرز اسم مرتبط به هو ابن هشام الكلبي.

وأخيرًا ترجم الفرس، الذين تذكروا أجدادهم، وسعوا بطبيعة الحال إلى تبجيلهم في عيون سادتهم الجدد، كتابهم القديم «**الشاهنامة**»، أو كتاب الملوك. وكان كتابًا من المرجح أن الذي بدأ ترجمته ابن المقفع بعد صعود العباسيين إلى سدة الحكم.

ومنذ ذلك الحين جمع الكُتَّاب الذين يكتبون بالعربية التواريخ التي كانت سابقة على الفترة الإسلامية، مسبوقة بتاريخ الكتاب المقدس بالنسبة للبعض، ومسبوقة بالتاريخ الفارسي بالنسبة للبعض الآخر. وكان من الطبيعي المضي فقط خطوة قصيرة أبعد نحو فكرة تقديم هذين التاريخين مرتبطين، بما في ذلك المهمة الصعبة لتأسيس توافق تتابع زمني فضفاض.

ومن الطبيعي أن نستنتج مما قيل للتوّ أن جميع الكُتَّاب

الذين كتبوا التاريخ الباكر كانوا من العرب، وبصفة خاصة من الموالي. وتحت حكم العباسيين ظهر عدد كبير من المؤلفين الإيرانيين منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي فصاعدًا. وقد استطاعوا، على أية حال، حفظ عادات بعينها وتطويرها، وهكذا كانت الاتجاهات المتنوعة قادرة على التعايش سويًا.

وكان عند نقاط الاتصال بين هذه الفترات أن ظهر موضوع أدبي لم يلبث أن اتضح من خلال كتاب من أروع الكتب، وكان مناسبًا لجمهور من العامة المستفسرين ليجدوا فيه كل المعلومات الممكنة عن الشخصيات البارزة في القرنين الهجريين السابقين، سواء لحسم مكانتهم في التاريخ، أو لتقدير قيمتهم في رواية الحديث. هكذا كانت الحاجة التي أحسَّها ابن سعد، الذي رتب في كتابه الشخصيات التي درسها في طبقات بحسب أجيالهم، ولهذا السبب سمي **الطبقات**. هذا المجموع الضخم له قيمة لا تقدَّر بالنسبة لنا، ليس فقط بسبب جدارته الجوهرية، ولكن بسبب كونه غالبًا المصدر الوحيد الذي يمدنا بالمعلومات قبل تعديل مثل هذه المعلومات بفعل تغير النظرة في المؤلفات اللاحقة.

وبعد جيلين، تم جمع كتاب آخر يمكن مقارنته به من بعض الجوانب، على يدي البلاذري. وعلى النقيض من كتاب **الطبقات** لابن سعد، يتسم كتاب **أنساب الأشراف** للبلاذري بانشغاله الأساسي بشخصيات الخلفاء الأمويين وحاشيتهم.

والخلاصة أننا، إذا ما نظرنا في المسار الكلي للتاريخ كما تم تقديمه لنا في المؤرخات اللاحقة، مضطرون أن نستنتج أن أحداثًا بعينها، حتى من بين أكثرها أهمية، لم تجد من يؤرخ لها. وهذا للغرابة حال الثورة العباسية. ومن المؤكد أنه كانت هناك كتابات هجائية، ولكن يبدو أن أول رواية شاملة كانت بقلم من يسمى ابن النطاح، الذي كتب بعدما يقرب من ثلاثة أرباع القرن من وقوع الحدث. ومن المفترض أن هذا الكتاب قد وصلنا في مخطوط مجهول المؤلف تم اكتشافه ونشره تحت عنوان **أخبار آل عباس** أو **أخبار الدولة العباسية**[1]. وقد يكون الأمر كذلك، ولكن ينبغي التأكيد على أن هذا الكتاب، الذي يجب اعتباره أصليًّا، يبدو وكأنه وضع على أساس توثيق لا يختلف بشكل رئيسي عن ذلك الذي وصلنا من الكتَّاب العراقيين،

(1) نشره عبد العزيز الدوري، بيروت، 1971.

والذي بالتالي يبدو وكأنه قد خدم مؤلفًا لاحقًا مجهولاً من خراسان بعد قرنين من الزمان. والكتاب مجهول المؤلف الذي اكتشفه عبد العزيز الدوري ينسب المطالبة العباسية بالخلافة إلى حقيقة أنهم كانوا ورثة حركة محمد بن الحنفية وأبي هاشم -وهي عبارة تبدو حقيقية عن العباسيين الأوائل- ولكن الخليفة العباسي الثالث، المهدي (حكم من 158-169هـ/775-785م) طعن فيها، وأعلن أن اللقب الخاص بالعائلة حق لها.

وكان كاتبو الأخبار، مثل جامعي الحديث ينتمون إلى تنويعة من المذاهب والأحزاب، وهو ما يحتمل أن يكون السبب في أنهم اختاروا أن يكتبوا عن حكايات اتخذت فيها المذاهب والأحزاب جوانب متعارضة. وهذا يفسر دائمًا لماذا يعتبرون الآخرين ذوي قيمة أكبر أو أقل. هذا الجانب في كتبهم لا ينبغي المبالغة فيه على أية حال. وبقدر ما كانت منازعاتهم حيوية، فإنه لم ينتج عنها في ذلك الحين خلق طوائف منقسمة على نطاق واسع، كما حدث فيما بعد. ومن المعلوم جيدًا أن أولئك الذين سُمُّوا فيما بعد باسم السُّنَّة قبلوا الحديث القائم على أساس حجية الأشخاص المصنَّفين على أنهم الشيعة، والعكس بالعكس. وهذا يعني

أنه لم يكن ثمة تمييز أساسي بين الدليل الوثائقي الذي استخدمه أتباع معاوية، وأتباع العباسيين والشيعة الأوائل. ولم يحدث سوى تدريجيًا عندما أُنتجت الكتب التي كان مجالها أوسع ومعقدة بشكل أكبر، أن بدأت بالفعل تبدو مقصودة بشكل أكثر تحديدًا لطائفة أو أخرى من الناس.

وقد أدى التقديم الزمني التتابعي للمادة التاريخية إلى إعادة ترتيبها في شكل حوليات، أي وضع الأحداث سنة بعد أخرى. وكان ذلك نظامًا وجد في كتابات ما قبل الإسلام وفي أدب أوروبا العصور الوسطى. وربما سيكون من التناقض أن نقول: إن الكُتَّاب العرب – وعلى كل حال لم يكن ذلك ينطبق عليهم جميعًا – لم يصلوا إلى هذه الصيغة بدون إدراك غامض لانتشارها، ولكن لا يبدو أن هذا أمر أساسي لشرح مسار تطورها. والنقطة الأولى التي يجب ملاحظتها بطبيعة الحال أننا نتعامل الآن مع سنوات قمرية وليست شمسية. وفي الحقيقة أن العرب المسلمين، كما هو معروف جيدًا، اتبعوا منذ وقت مبكر التاريخ بالهجرة لأغراض إدارية. وتبرهن أقدم أوراق البردي الإسلامية على هذا. وبناء على هذا، وعلى الرغم من أن جزءًا كبيرًا من المعلومات التي قدمها المؤرخون كانت في

الأصل شفاهية بدون تواريخ دقيقة، فإنها حين تأتي إلى الوثائق الرسمية المكتوبة، تكون هذه مؤرخة بالفعل، ويستفيدون منها بشكل طبيعي في نصوصهم تحت ذلك التاريخ. وأقدم مثالين لدينا على العرض في شكل الحوليات يرجع تاريخهما إلى منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي؛ وهما جزء من مؤرخة خليفة بن خياط التي تم اكتشافها ونشرها حديثا، والمؤرخة المفقودة لأبي الحسن الزيادي. والكتاب عنوانه **التاريخ على السنين**، وهو ما يشير إلى أنه كان يعتبر ابتكاراً. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، كان الشكل الحولي في عرض المادة التاريخية هو الذي قُيِّض له أن يكون مطبقًا في الشطر الأعظم من التدوين التاريخي، حتى في حالة الكتب التي كان واضحًا أنها لا تتطلب هذا النمط من الكتابة. وعلاوة على ذلك فإن الحوليات لم تستبعد أشكال التقسيم الأخرى، بالعهود، أو بالدول. لقد كان ذلك ترتيبًا سَهَّل الإشارات المتبادلة بين الكتب، مما جعل من السهل أن نجد في كل منها الأحداث نفسها. وعلى أية حال، ففي بلاد بعينها، مثل إيران ومصر، بقي من المفضل تناول التاريخ بشكل أكثر شمولاً بالتقسيم إلى عهود دونما أي تمييز تتابعي تاريخي آخر.

وقد يقال إنه في ذلك الحين كانت كتابة التاريخ قد شكَّلت نوعًا أدبيًا مستقلاً، حتى عندما كان يمارسها كُتَّاب كتبوا كتبًا من نوع مختلف. وسرعان ما صار من المعتاد تسمية هذا النوع «تاريخ». بيد أن هذه الكلمة، التي يحتمل أن يكون اشتقاقها يتعلق بالتاريخ القمري، والتي لا يبدو أنها مرتبطة بأية لغة سامية قبل الإسلام، ليس لها تعريف دقيق يتصل بكلمة History الأوروبية. ويمكن أن تنطبق على كتب في فئات مختلفة للغاية؛ ومن الصعب تحديد تاريخ أول ظهور لها، ولكن أحد أوائل الأمثلة التي تشهد على ذلك **تاريخ البخاري**، الذي هو قائمة بالمصادر الرئيسية ورواة الحديث. وعلى النقيض يمكن أيضًا أن يحدث أن كتباً معينة تسمى «تاريخ» أو «أخبار»، ولكنها تستخدم مصطلحات أخرى(*).

❋ ❋ ❋

ولقد تعامل الطبري مع مجمل التاريخ الإسلامي بصدق وإخلاص، أو اعتقد على الأقل أنه فعل ذلك.

(*) التاريخ والمؤرخون في الحضارة العربية الإسلامية، تأليف بوزورث وآخرين؛ ترجمة قاسم عبده قاسم، الجيزة (مصر): عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2017، ص 64 - 69.

والحقيقة أنه على الرغم من أنه سافر قليلاً بين الشام ومصر، فقد كان ما يمكنه قوله عن هذين البلدين أقل كثيرًا مما قاله عن بلاد النصف الشرقي من العالم الإسلامي. ومما يلفت النظر، فوق هذا كله، أنه تجاهل المغرب الإسلامي تمامًا، وهو جانب لم يفت انتباه قراء مثل عريب بن سعد القرطبي، الذي كان يعرف شهرة الطبري جيدًا، على الرغم من المساحات الشاسعة الفاصلة بينهما. وبالنسبة للمؤرخ المسلم، من الواضح أن الطبري يفسر الأساس الذي قامت عليه كل البحوث في القرون الثلاثة التي كتب عنها(*).

وفي ذلك الوقت تقريبًا وجد نوع أدبي جديد ليس له نظير في أي مكان آخر، وهو تواريخ المدن في شكل كتب تراجم. وكانت تواريخ المدن موجودة منذ فترة سابقة، وقيض لها أن تستمر فترة أطول قليلاً، بيد أنها لم تكن مجموعات من التراجم. فقد كان **كتَّاب بغداد** لابن أبي طاهر طيفور في الحقيقة، على الأقل فيما يخص الجزء الباقي منه، تاريخًا عامًا للخلافة فيما يتعلق ببغداد عاصمتها. ويقدَّم كتاب **أخبار مكة** للأرزقي الفارقي على أنه تاريخ للمدينة، على حين أن **تاريخ الموصل** لأبي زكرياء

(*) التاريخ والمؤرخون في الحضارة العربية الإسلامية، ص 73.

يحيى بن محمد الأزدي (ت 334هـ/ 945م) الذي يدين بعض الشيء للطبري، تاريخ عام لأعالي العراق؛ كما أن النصف الباقي من **تاريخ قم** تقرير جيد عن إدارتها. وكتاب النرشخي عن **تاريخ بخارى** تاريخ عام للأسرة السامانية.

وربما ينبغي أن نذكر عند هذه النقطة ما يسمى كتب الفضائل، وهي كتب ناقشت فضائل مدن بعينها، أو أقاليم مخصوصة، وأوردت اقتباسات عن فضائل هذه المدن والأقاليم، وكانت ذات سمة أثرية قديمة أكثر منها تاريخية.

ولم يكن التدوين التاريخي عامة من أجل الكتَّاب بصفة خاصة؛ وإنما كان القصد منه أن يستخدمه القراء لمعرفة مختلف العلوم والثقافات. ومن ثم، فقد انتهج المؤلفون عمومًا أسلوبًا بسيطًا، بحيث يشرحون بقدر ما يمكن من الوضوح ما ظنوا أنه يجب تقريره. وكانت المقدمات والإهداءات تميل إلى استخدام مصطلحات تعبر عن المكانة السامية للراعي الذي يتوجه المؤلف بكتابه إليه. كذلك فإن الفترات التي كانت مثيرة بشكل خاص ربما كان يتم تأكيدها بالطريقة نفسها. وعندما كانت موضوعًا للشعر، كان يتم الاقتباس منه بحرية.

وكانت كتابات مديح الحكام تميل إلى استخدام

مصطلحات رنانة، مثلما في كتاب **التاجي** لأبي إسحق إبراهيم بن هلال الصابئ في تقريظ عضد الدولة، تاج الملة، و**تاريخ محمود الغزنوي** للعتبي. هنا كان المؤلف إيرانيًّا ومن المستحيل ألا نحس بتأثير الأدب الفارسي، حيث الأسلوب المزخرف والشعري في التدوين التاريخي كما هو في المجالات الأخرى. ومن المحتمل أن مثل هؤلاء المؤلفين اعتبروا التاريخ جزءاً من الأدب وأرادوا استخدامه وسيلة لعرض براعتهم. وعلى أية حال، لا يجب المبالغة في هذا الجانب: وبغض النظر عن حقيقة أن أعدادهم كانت قليلة، فإنهم لم يستخدموا ألاعيبهم الأدبية أبدًا، على الأقل قبل عصر سلاطين المماليك، للتغطية على الحقائق الصعبة التي يعرضون لها أو تزييفها.

وبطبيعة الحال، كان لكل كاتب في الأمور التفصيلية أسلوبه المميز الذي يتأثر أحيانًا بالكلام اليومي المحلي؛ والواقع أن الأمانة التي كان الكاتب يعيد بها إنتاج الاقتباسات والأدلة الوثائقية يمكن أن تنتج في حالات متطرفة فسيفساء من الأساليب بدلاً من أسلوب واحد. وتتجلى اللامبالاة بالزركشة الأدبية في بساطة العناوين، مع افتراض أن الكتَّاب الأوائل كانوا مسؤولين دائمًا عن ذلك. وفيما بعد وجدت

العناوين المزخرفة التي تتبع الطراز الأدبي السائد، وأشهر مثال على ذلك كتاب **مروج الذهب** للمسعودي، ولكن فيما بعد كانت عناوين كتب أخرى مهمة، مثل كتاب عز الدين بن الأثير، تسمى ببساطة **الكامل في التاريخ**، أو كتاب الذهبي **تاريخ الإسلام**(*).

(*) التاريخ والمؤرخون في الحضارة العربية الإسلامية، ص 80-81.

(5)

قد يتساءل المرء: هل نحن بحاجة إلى كتاب جديد عن الحروب الصليبية، كما لو لم تكن هناك عشرات الكتب التي تناولت هذا الموضوع، فضلاً عن آلاف المقالات؟ وأقول مجازفًا، مع ما قد يبدو في ذلك من إسراف في الاعتداد بالرأي: إن قيمة هذه الكتابات لا تتناسب – في الغالب – مع كميتها الوفيرة، وإن الأسباب التي أدت إلى تكاثرها، والأثر الذي تركته على البحث العلمي أفضيا – نسبيًا – إلى نوع من الزيغ، بل الابتعاد عن روح العلم ومنهجه، سواء أدرك ذلك المختصون في هذه الدراسات أم لا. فالحروب الصليبية وامتداداتها فيما سُمِّي – بعد ذلك – بالشرق اللاتيني(*) لم تكن موضوعًا دراسيًّا بالنسبة للمؤرخ فحسب؛ بل كانت جزءاً من التصور الذهني لدى الإنسان الغربي، الذي هو على درجة ما من الثقافة. وينطبق هذا بشكل خاص على فرنسا، وإن كان غير مقصور عليها.

(*) الشرق اللاتيني: تسمية أطلقت على الدويلات التي أسسها الصليبيون في الشرق العربي لمدة قرنين من الزمان، هي فترة الحروب الصليبية، وكانت تضم: مملكة بيت المقدس وإمارة الرُّها وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس. (المترجم).

إن الكتابات التي أُنجزت منذ عهد الحروب الصليبية ذاتها قد صدرت في مناخ سيطرت عليه الأهواء التي لا تتوافق – بداهة – مع البحث الموضوعي الخالص؛ إذ اصطبغت في العصر الوسيط - كما في أيامنا هذه – بأفكار ومشاعر نابعة من نفوس أصحابها، كُتابًا وقُراءً، ولا صلة لها بصانعي ذلك التاريخ، فالمؤرخ المتخصص يخضع – أحب أم كره – كغيره من الناس لتأثير بعض الأفكار الشائعة داخل مجتمعه. لقد ظلت الحروب الصليبية لفترة طويلة إحدى الظواهر التاريخية التي أحاط بها كثير من الجهل، ومهما كانت المفارقة التي تتبدّى فى هذا التأكيد، لا تزال الحروب الصليبية في حاجة إلى مزيد من الأبحاث الجديدة، على الرغم من التقدم المهم الذي حدث في الآونة الأخيرة.

ومن المفيد في هذا الصدد أن نتفحص تاريخ التاريخ للحروب الصليبية، ذلك التاريخ الذي ظل – منذ البداية – حكرًا على الأوساط الإقطاعية والكنسية؛ وكُتِبَ – طوال عدة قرون – بغرض تمجيد الكنيسة والعقيدة، فجاء رد الفعل في العصور الحديثة من أوساط العلمانيين، أو من البروتستانتيين غير الفرنسيين، مشهِّرًا بما انتهجته الحروب

الصليبية من تعصب وجهالة وسياسة بابوية توسعية.

ومنذ أنْ أخذ التاريخ يهتم بالشعوب – نظرًا لانتشار الديمقراطية – وليس بقادتها العسكريين والدينيين فحسب، قام المؤرخون بالاحتفاء بحركة الحماس الشعبي التحرري العظيم بشكل رومانسي، أو على النقيض من ذلك، أخذوا ينددون بجشع الإقطاعيين وعقلية الاستغلال لدى التجار، وتعطش الجماهير لإراقة الدماء. وأخيرًا صارت الحروب الصليبية مناسبة للإشادة بالأشكال الاجتماعية العتيقة وأفضلية السلطة الملكية على الفوضى بكافة أشكالها، كما تم تفسيرها على أنها تمثل أول مظهر لحملة استعمارية، أو في أضعف الأحوال، بداية للتأثير الثقافي الذي مارسته فرنسا في الشرق منذ ما يقرب من قرنين. أما خارج فرنسا، ووفقًا للبلدان أو المعتقدات، فقد تمثلت في الحروب الصليبية – لدى بعضهم – عظمة الروح التبشيرية، ويقظة المشاعر الأوروبية المتآلفة، وارتقاء الرأسمالية في أشكالها الأولى بفضل الإيطاليين... إلخ. وفي الفترة المعاصرة اتخذ الإسرائيليون من الصليبيين روادًا لتحقيق مشروعهم القومي، بينما ينشد العرب من كفاح أسلافهم – لاستعادة الوطن من الصليبيين – حافزًا لإرادتهم المعادية للصهيونية.

وبطبيعة الحال، فإن كل هذه الاعتبارات خارجة – بمعنى ما – عن روح العلم، رغم ما أنجز من دراسات لها صلاحيتها التامة، في إطار المؤلفات التي ظهرت في مثل هذه الأجواء بل بفضلها. وحتى الأبحاث العلمية الحقة ذاتها شهدت تطورًا هائلاً ما بين القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مقارنة مع غيرها من الدراسات التي ظهرت في النصف الثاني من هذا القرن. لقد تم النظر إلى الحروب الصليبية والشرق اللاتيني – وقد اعتُبر لفترة طويلة امتدادًا للغرب – من خلال ثلاث وجهات متناقضة في ظاهرها، لكنها متفقة في حقيقتها: لقد تم النظر إليها، إما بمعزل عن غيرها – وذلك بوصفها إنجازًا فريدًا من نوعه لا مثيل له – وليس له علاقة فعلية بأوجه التاريخ الأخرى، وإما بوصفها حدثًا تاريخيًا له من الأهمية ما جعله محورًا لكل ما جرى خلال تلك الفترة، وإما بوصفها أخيرًا مظهرًا للحضارة الغربية في مجملها، بحيث لا يتم أي تمييز بداخلها[*].

ومن المؤكد أن الحروب الصليبية ظاهرة غربية لا مجال لعرضها من منظور شرقي، ومع ذلك، فهي تندرج بشكل

(*) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ. القاهرة: سينا للنشر، 1995، ص 17 – 18.

ما داخل سياق شرقي، وقد يكون من المفيد عقد مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجهًا لوجه. فقد حدث – في بعض الأحيان ولو بصورة سطحية للغاية – أن جرى الحديث عن تأثير الشرق على الغرب بواسطة الحروب الصليبية، كما لو كانت الطريق الوحيد والرئيسـي لذلك التأثير. ولقـد أهمل التأثير المعاكس للشرق اللاتيني – كما يسمونه – على السكان المحليين وهم الأغلبية الساحقة من السكان. إن القرنين اللذين مرَّ بهما الشرق اللاتيني ليسا أقل من مرحلة في تاريخ سوريا وفلسطين، ولذا يجب إفساح المجال للنظر إلى التفاعل بين عالم البحر المتوسط والشرق الأدنى والأوسط نظرة متبادلة من كلا الطرفين. ولست أتجاهل المحاولات التي تمت في هذا الاتجاه، ولو أنها تكاد تقتصر على الوقائع السياسية والعسكرية، وهي محاولات – وهذا أمر لابد أن يقال – مبنية على معرفة بسيطة بالشرق، إنْ لم تكن – في غالب الأحيان – قائمة على جهل كامل بلغاته. ومن البدهي أن دراسة أوجه الالتقاء والتأثير لابد أن تتم من جميع وجهات النظر على أساس نظرة شاملة للتاريخ، ولا يعقل أن يزعم أحد أنه بالإمكان تحقيق ضروب من التقدم الجدّي في هذا

المجال بدون معرفة اللغات التي قد لا تُيسّرها الحواجز الجامعية بين فروع المعرفة، لكن لابد للمؤرخ أن يتمكن منها بنفسه. وما نقوله هنا ينطبق بالمقدار نفسه على الوضع الوسيط لبيزنطة، وإنْ كانت الدراسات المنصبَّة حولها تجعلنا في موقع أفضل[*].

(*) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص 19 - 21.

(6)

لن أصبّ اهتمامي على الحقيقة التي ظهرت مؤخرًا عند دارسي القرون الوسطى المختلفين، ومفادها أن الكنيسة خرجت بنتيجة الاعتقاد بأن من حقها، بل من واجبها، في زمن ضعف السلطة الزمنية، وأكثر من ذلك كلما أصبحت هذه السلطة عدوانية، خوض الحروب بنفسها. هذه الكنيسة التي تركت السيف للسلطة الزمنية، وكانت راضية بحصر اهتمامها في تشجيع الحروب التي تم خوضها للدفاع عن المسيحية أو لتوسعها. كما ليس ببالي أن أصبّ اهتمامي كذلك على الفكرة المصاحبة التي دارت بخلد غريغوري السابع، والمألوفة لدى رجال الدين من خلفية طبقية إقطاعية بأنّ خوض الحرب قد يكون خدمة للكنيسة، أو بأن النشاط الحربي المميت الذي خاضه بعض الأسياد الإقطاعيين، والتي حاولت حركة «الهدنة وسلام الرب» (اسم الحركة الأصلي هو «السلام وهدنة الرب») الحدّ منها، وإن لم تنجح في إنهائها، قد تتحوّل إلى حرب من أجل الدين. كان كل هذا غريبًا عن الذهنية البيزنطية، لأنّ البيزنطيين كانوا معظم الوقت في حرب مع جيرانهم المسلمين. ولأنّ [حاملي] رمز الصليب والأساقفة شاركوا

في هذه الحملات، فقد صُنِّفوا على أنّهم ينتمون إلى ما قبل الحملات الصليبية. يجب أن نحترس من اختلاط التفكير علينا. إنّ اعتبار الشعب البيزنطي لبعض هذه الحروب على أنها حروب مقدسة صحيح تمامًا. لكن الكنيسة البيزنطية رفضت دائمًا فكرة أن المشاركة في حروب كهذه قد يكون فضيلة مسيحية من شأنها التقليل من العقوبات يوم القيامة. كانت الكنيسة الغربية يومذاك تعلن، وإن بتحفظ، بأنّ الحرب في سبيل الدين من شأنها غفران الخطيئة.

أخذت فكرة وممارسة الحرب المقدسة شكلهما النهائي تحت الرعاية البابوية. وأعتقد أنه من الملائم رسم بعض المعالم بدقة أكثر مما سبق وحدث، رغم أن الوقائع بهذا الشأن بيّنة ومعروفة، لأنه من المهم التأكيد على أن المبادرة في الحرب المقدسة ضد المسلمين أخذت قبل موقعة مانزيكرت، وبالتأكيد قبل مجيء المرابطين. كان الهجوم الإسلامي سابقًا هو الذي فرض على المسيحيين في إسبانيا أو البابوية في إيطاليا حمل السلاح، وحمل الكنيسة نتيجة لذلك على التحول عن شعارها الأصلي. لكن تجب الإشارة إلى أنه في هذه اللحظة في القرن الحادي عشر كان التهديد الإسلامي أبعد ما يكون عن التقوّي، بل قد اختفى تمامًا.

كانت الدول الإسلامية في إسبانيا وشمال إفريقيا وصقلية قد بدأت بالانهيار، فقد أدى الصراع الداخلي فيها إلى التخلّي عن الهجوم الخارجي. وساد في إسبانيا على الخصوص جوّ من التعاون النادر بين الدينين المتنافسين، لم تشهد القرون الوسطى مثيلاً له إلا نادرًا، رغم تناقضه البادي. ولم يسبق أن كانت تلك الهدنة على الشكل الذي كانت عليه بالنسبة إلى المسيحيين في الأراضي الإسلامية الغربية. لقد ساء الوضع في مكان وحيد فقط. لم يعد باستطاعة مسلمي شمال إفريقيا الانصراف إلى التجارة التي كانت مصدر رفاههم، وقد خرّبهم غزو العرب الهلاليين (من بني هلال)، ودفع بهم إلى الموانئ. لقد أصبحوا يُعرفون بالقراصنة «بارباري». حركة كانت لتستمر بين غزو وانقطاع عنه حتى بداية القرن التاسع عشر. لكن لا يبدو كما لو أن روما كانت لتأمل بتحريك الجيوش ضد هؤلاء. قد يكون السبب هو الحملات التي نظّمها البيزاويون والجنويون (من بيزة وجنوة: مدينتان إيطاليتان) في 1088 ضد ميناء تونس الرئيسي «المهدية» وحصلت على مباركة البابا فيكتور الثالث، لكن بالتأكيد لم يحصلوا على أية مساعدة منه تستحق الذكر أكثر من ذلك. تمت مراسلات حقًا بين

غريغوري السابع مع أمير بوغي، ولربما تضمنت تفاهمًا مشتركًا كان يشكل ردًّا على عدائية غريمه التونسي، لكن المراسلات همت بالأساس المسيحيين المحليين تحت حماية الأمير المسلم، وكذلك واضح دون شك، دور التجار الرومانيين الذين منحوا دعمهم المالي للكرسي الرسولي. لم يكن الجهد العظيم للبابوية بهذا الاتجاه، وهنا أيضًا قد يكون النورمنديون السبب. عقد كونت صقلية السلام مع أمير سلالة بني تميم التونسية، وضمِن له بأنه لن يمد يد العون لإخوانه في الدين أكثر مما فعل. ولم تكن نيَّة روجر الإخلال بالسلام المنعقد، ورفض عرض البيزويين تسليم المهدية له بعد ذلك. وبعد أن أكمل فتح القسطنطينية استولى على مالطة، لكن يبدو أنّ الجزيرة لم تكن آنذاك جزءاً من سلطان بني تميم. بعد ذلك خدم جنود مسلمون في جيوش روجر، ومكنّوه من النجاح ضد قوى مسيحية منافسة في إيطاليا.

كان تدخل الكرسي الرسولي الرسمي الأول على الجبهة الصقلية، وفي ظروف غاية في الأهمية قدّم القادة النورمنديون آيات التبجيل للبابا عام 1059 إبان الحلف النورمندي البابوي، وكان من بين الأراضي التي امتلكوا

حق إخضاعها، إضافة إلى تلك التي أخذوها من بيزنطة، صقلية المسلمة(*).

لم يكن تدهور الوضع في الشرق هو ما يفسر الحملة الصليبية، بل كانت مصلحة الغرب العظمى إلى حدّ ما هي ما تفسر الحملة. كان الكثيرون في الغرب على استعداد مادي وأخلاقي ليخوضوا هذه المغامرة العظيمة والرائعة. ليس هناك حاجة هنا لنمرّ على ما سبق وقيل لآلاف المرات عن حماس الدين وتحجره وعسكريته، والاضطراب الاجتماعي على جميع المستويات في فرنسا مع نهاية القرن الحادي عشر. ومن بين من غادر كان العاميون الذين كانوا مستعدين للرحيل لأول وهلة، والذين لم يكونوا يملكون شيئًا ليتركوه خلفهم، ومن بينهم كذلك اللوردات الذين كان عليهم تسوية أمورهم، كانوا بطيئين، لكن ليسوا الأقل عزمًا. لقد تحرك الناس بحثًا عن الفوائد المادية والروحية الآنية، متطلعين إلى العودة إلى أرض الرب تلك، بينما تحرك اللوردات بهدف تمضية بقية حياتهم في الحرب المقدسة، ولتأسيس أنفسهم في أرض جديدة رائعة، حيث

(*) مدخل إلى الحملة الصليبية الأولى، ترجمة عبد الباسط منادي إدريسي. **مؤمنون بلا حدود**. الرباط – أكدال، 14 مارس 2018، ص 14 - 16.

سيحصدون جائزة خدمتهم للرب أولاً في هذا العالم، وفي العالم الآخر بعد ذلك... تخبرنا بعض الكتيّبات المحترمة في أجزائها عن الحملات الصليبية بأنّ روح الحملة الصليبية انقبضت بعد الحملة الأولى، لأنّ الإيمان نفسه نقص. لكن يجد قراؤها أنّ نفس الإيمان هو الذي ألهم الكاثدرائيات القوطية، وأنتج أمثال القديس فرانسيس والأكويني في القرن الثالث عشر. لذلك علينا تفسير التغير في تمظهر الدين السطحي، وليس في تراجع الدين...

إن التطورات الداخلية في العالم الإسلامي إبان القرن الحادي عشر أثارت في الشرق الرغبة في استعادة قوة الدين الهجومية للإسلام في شكل جديد على حساب المسيحية البيزنطية، لكن دون أن تمس المسيحيين في المناطق التي فتحها الإسلام قديمًا، أو الحجاج الغربيين في فلسطين. لكن الهزيمة البيزنطية والتطورات الداخلية في الغرب قادت العالم الغربي إلى حوطِ مظالمه بأهمية خاصة لم تحظ بها مشاكل من هذا النوع في السابق في نظرهم. لقد تطور مفهوم سياسة الحرب المقدسة في الغرب ضد الإسلام، دون إثارة جديدة منه، ونتيجة للتدبير البابوي في جزء منها. لقد رأت البابوية في الحملة الصليبية وسيلة لتدبير استعادة

الوحدة المسيحية تحت قيادتها، كأحد أهداف حركة الإصلاح كما تصورته البابوية، وكضرورة كذلك لاستمرار البابوية في مقاومة الإمبراطورية. إنّ جميع هذه العناصر المشكلة تفسر كيف أن حملة قامت ضد القدس، حيث لم تبررها الظروف آنذاك أكثر من أي وقت سابق على ذلك(*).

(*) مدخل إلى الحملة الصليبية الأولى، ص 21 - 23.

ثالثًا ـ قالوا عنه

(1)

كلود كاهن باحث صاحب إسهاماتْ واسعة في التاريخ العربي الإسلامي بشكل أوسع. وقد تنوعت إسهاماته ما بين تاريخ الشعوب الإسلامية وتاريخ بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وتاريخ الحروب الصليبية نفسها. وقد كان من المستشرقين العارفين بالتراث العربي الإسلامي بدرجة عميقة وكبيرة. ولعل هذه المعرفة هي التي ساعدته على التصدي لموضوع التراث العربي الإسلامي بكل اقتدار، وإلقاء نظرة عامة على التراث التاريخي منذ ما قبل الإسلام حتى العصر المملوكي والعصر المغولي. وقد تجلَّت معرفة كلود كاهن وتمكنه من موضوعه في معرفته الواسعة بإنتاج المؤرخين المسلمين ونوعية كتبهم، وما بقي منها وما ضاع في غياهب الزمان. وما كتبه كلود كاهن في هذا المجال يعد إسهامًا لا يمكن تجاهله أو الاستغناء عنه لكل من يدرس التاريخ الإسلامي، سواء من حيث

مصادره، أو من حيث فتراته الزمنية، أو من حيث الأماكن التي شهدت إنتاج مصادر التاريخ الإسلامي على تنوع أنواعها وأنماطها(*).

(*) قاسم عبده قاسم: مقدمة كتاب **التاريخ والمؤرخون في الحضارة العربية الإسلامية**، 6-7.

(2)

حرص كلود كاهن على كتابة التاريخ بتأثير من المنهج الذي بلورته «مدرسة الحوليات» (مارك بلوخ، وفرنان بروديل، وسواهما) من دون أن ينخرط في خط هذه المدرسة أو يصبح رمزًا من رموزها، برغم أبحاثه التي نشرها في مجلة **الحوليات** (*Les annales*) الشهيرة. فهذا المنهج لا يؤرخ من خلال الأحداث التاريخية الكبرى، ولا من خلال الأحداث السياسية البارزة خاصة، بل يغوص إلى منشأ هذه الأحداث، إلى «محرك التاريخ» الكامن في الاقتصاد والاجتماع والثقافة، إلى «بنية تحتية» غير منفصلة عما يرتسم على «سطح التاريخ» من أحداث في «بنية فوقية»، بحيث لا تغيب عن كتابة التاريخ على هذا النحو علاقة المثال بالمادة، وتحول الثقافة إلى مادة فاعلة في التاريخ لتغدو تلك الكتابة بحثًا لا عن الأحداث التاريخية، بل عن «محركها»، عن العوامل الفاعلة في صنعها، ليصبح التاريخ هو العلم الجامع للعلوم والمعارف جميعًا، يتجسد في وقائعه تفاعلها الذي يسميه فلاسفة التاريخ «براكسيس» (praxis)؛ أي تفاعل النظر والعمل، الفكر والممارسة، مجسدًا في وقائع تاريخية يجب البحث عنها، لا في

أراشيف وزارات الخارجية ومحفوظات السلاطين والملوك، ولا في وثائق جاهزة – على أهميتها – أيًا كانت، بل في ثنايا الوقائع التي تبقى محفوظةً آثارها في التاريخ كما تحفظ الجغرافيا تاريخ الأرض، وحركة تنقل لا تنقطع بين الفكر والعمل على تنفيذه، وكأنما كل شيء في البدء كلمة (le verbe). الاسم فعل. و«علَّم آدم الأفعال». أو كأنما الواقع ينبت من الخيال، لا كما تنبت مينرفا من فخذ جوبيتر، بل على نحو جدلي تتدخل في مساره وصيرورته عوامل كثيرة تسعى كتابة التاريخ إلى البحث عنها بغية اكتشافها. لذا نجد في كتاب كلود كاهن مكونات هذا التاريخ عبر مفردات ثقافية؛ إذ لم يترك المؤلف كلمة شكلت عنصرًا في تكوين تاريخ الإسلام إلا ذكرها بوصفها ذات دور معين في صنع هذا التاريخ أو نتيجة له، وقد حرص على كتابتها بخط مائل مشدَّد(*).

(*) حسين جواد قبيسي: مقدمة كتاب **الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية**، ص 10 – 11.

(3)

على الرغم من الإسهام الفرنسي في دراسة المصادر العربية للحروب الصليبية، فقد وجد كاهن أن ثمة الكثير لم يتم إنجازه، حيث إن عمل أكاديمية النقوش والآداب الفرنسية كان مجرد توفير نصوص دون دراستها أو نقدها، أو حتى تحديد أهميتها. لذلك آلى على نفسه أن يكرس شطرًا مهمًّا من حياته في هذا الصدد، وتجلى ذلك بوضوح في كتابه **سوريا الشمالية في فترة الحروب الصليبية**؛ فقد خصص فصلاً مهمًّا عن المصادر العربية وغير العربية المتعلقة بتلك الحقبة[1]، وهناك كذلك إسهاماته الثمينة في الطبعة التي نشر بها كتاب (جان سوفاجيه) الموسوم **مقدمة في تاريخ الشرق المسلم**[2]. كما كتب بحثًا بعنوان **الفرنجة في سوريا** (نشرته المجلة الآسيوية سنة 1937)، وفي عام 1948 اكتشف وترجم ونشر في مجلة الدراسات الشرقية رسالة في السلاح كتبت لصلاح الدين الأيوبي[3]. وفي السنة نفسها ظهرت طبعته **لتاريخ (العظيمي)** (ت532هـ/1138م)، وهو

(1, 2) Anne–Marie Eddé: Claude Cahen et les sources arabes de croisades. *Arabica*, T. 43, 1996, p. 89 .

(3) نجيب العقيقي: المستشرقون، ج1، ص 342.

من المؤرخين المسلمين الذين ظهروا مع بواكير مرحلة الحروب الصليبية[1]، وفي عام 1950 ترجم مقتطفات حفظها الذهبي وسبط ابن الجوزي لسعد الدين بن حمويه، وهو الأمير الأيوبي الذي خدم الملك المعظم والأشرف والمظفر غازي والملك الصالح[2]، وفي عام 1954 نشر مقدمة الحملة الصليبية الأولى[3]، وفي عـــام 1957 نشر كتـاب المكين بن العميد (ت672هـ/1273م)، الذي لم يكن معروفًا قبل هذا التاريخ[4]، وفي عام 1977 نشر وثيقة أصلية من كتاب **نهاية الأرب** للنويري (ت 732 هـ/ 1331م) تتعلق بالسلطان الأخير للأيوبيين في مصر، وهو الملك الصالح، متضمنة النصيحة التي وجهها لابنه توران شاه، فضلاً عن جمعه لمجموعة من نصوص **تاريخ ابن أبي طي** (ت630هـ/1233م)، ولا سيما فيما يتعلق بتاريخ حلب[5]،

(1) Anne–Marie Eddé: Claude Cahen et les sources arabes de croisades. *Arabica*, T. 43, 1996, p. 90 .

(2) Anne–Marie Eddé: Claude Cahen et les sources arabes de croisades. *Arabica*, T. 43, 1996, p. 90.

(3) Wikipedia. Org/wiki/claude cahen.

(4) Anne–Marie Eddé: Claude Cahen…, p. 90-91.

(5) المصدر السابق، ص 90-91.

وفي عـــام 1986 نشر قسمًا من **التاريخ الصالحي** لابن واصل (ت 697 هـ/ 1298م)[1].

إن هذه القائمة الغنية من دراساته تظهر أصالة عمله، والمنهج الذي اتبعه؛ فقد اعتمد على منهجية راسخة في دراسة ونشر وترجمة المصادر العربية عن الحروب الصليبية، والتي يمكن إجمالها في أربع نقاط رئيسة؛ وهي على النحو الآتي:

أولاً: اهتمامه بنقد المصادر العربية ونشرها وترجمتها ودراستها هو اهتمام أساسي ضمن مسيرته العلمية، ولا يضارعه سوى اهتمامه بالدراسات الاقتصادية، وإلى حدّ ما الاجتماعية، وتأتي دراسته لمصادر الحروب الصليبية في مقدمة عملية الاهتمام بالمصادر.

ثانيًا: يتفرس في نص معين ذي قيمة ثمينة وأصالة، وعلى ضوء ذلك يكرس نفسه لدراسته؛ بمعنى أن اختيار الضوابط والقواعد التي يلتزم بها في النشر والتحقيق هي قواعد بالغة التشديد، فهو لم يسع لتحقيق أو ترجمة أو نشر أي نص اعتباطيًّا حتى لو كان مخطوطا، وإنما يختار بعناية المصدر الذي يتضمن أقصى فائدة لتقديم إسهام أصيل.

(1) المصدر السابق، ص 92.

وفيما يتعلق برسائل ضياء الدين بن الأثير وجد مادة ثمينة لم يهتم بها أحد قبله نتيجة ما تكتنـزه من معرفة، لذلك أقدم على دراستها. وكذلك الأمر بالنسبة لنصوص ابن أبي طي والمكين بن العميد. وهذه الفكرة لم تطبـــق -برأي كاهن - على ناشري المصادر العربية، سواء في الشرق أو الغرب؛ لأن اختيار النص الثمين لابد أن ترافقه عملية صعبة من مقارنة النصوص وجمع نسخ المخطوطات، بل الأمر يتطلب أحيانًا الاتصال بالمكتبيين، والبحث عن المخطوطات في كل مكان[1].

ثالثًا: غير معنيّ بنشر وترجمة النصوص كاملة، فهو يسعى جاهدًا لنشر الفقرات الأصيلة من النص؛ لأن همّه الأساسي تبيان ما تتضمنه هذه النصوص من قيمة تاريخية كبيرة، وفي ذات الوقت ينبه الباحثين إلى محتويات المصادر وأماكن وجودها، وما تتضمنه من نصوص. مثال ذلك: ما قام به من نشر مقتطفات من كتاب الطرسوسي في فن الحرب، أو نشره لوثيقة أصيلة من **نهاية الأرب** للنويري تتعلق بتاريخ آخر الملوك الأيوبيين في مصر.

(1) Anne–Marie Eddé: Claude Cahen et les sources arabes des croisades, p. 92.

رابعًا: تنبيه الباحثين إلى الإمكانيات المستقبلية في دراسة ونشر المصادر الأولية، بمعنى أنه لا يكتفي بتقديم المعلومات، وإنما يجعل همّه توجيه الأنظار صوب المستقبل. نظير دعواته المتكررة إلى إعادة نشر وتحقيق كتاب **الكامل** لابن الأثير، وتنبيهه للمستشرقين إلى دراسة كتاب ابن الشحنة الذي اختصر كتاب **بغية الطلب** لابن العديم[1].

ومهما يكن من أمر، فإن كاهن يكشف عن تعاطف عميق في بعض دراساته وأبحاثه تجاه تاريخ المنطقة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، أو بعبارة أخرى يرى أن الحروب الصليبية، وإن كانت مبادرة أوروبية نمت وانطلقت من الغرب، وهو في هذه الحالة الأقدر على دراستها، إلا أنه في اللحظة التي وصلت فيها الحملات الصليبية إلى الشرق أصبح من المنطقي أن يقوم الشرقيون بدراستها، فالأحرى أن يدرس الشرق تلك الأزمنة التي حدث خلالها صراع أو التقاء مع منتجات الحضارة الغربية[*].

---

(1) Anne–Marie Eddé: Claude Cahen et les sources arabes des croisades, p. 94.

(*) علي حسين علي: **المستشرق الفرنسي كلود كاهن ومصادر الحروب الصليبية؛** رسائل ضياء الدين بن الأثير أنموذجًا. مجلة **سرّ من رأى**، مج7، ع24 (كانون الثاني، 2011)، ص 186-188.

ويمكن أن نجد تطبيقًا للمبادئ والمعايير التي أخذها كاهن على نفسه في دراسته لمراسلات ضياء الدين على النحو الآتي:

1- مما لا شك فيه أن كاهن قد اختار نصًّا بالغ الأهمية، وقدَّم دراسة رائدة في هذا المجال؛ إذ لم يسبقه من المستشرقين في التعريف بضياء الدين سوى المؤرخ الإنجليزي مارجوليوث.

2- إن مادة ضياء الدين بن الأثير هي في الأصل ليست مادة تاريخية، وإنما مادة أدبية أدرك كاهن قيمتها التاريخية، ونبّه إليها.

3- إن كاهن لم يكتف بمخطوطة واحدة، بل سعى للبحث عن المخطوطات المتعددة للرسائل. والجدير بالانتباه أن الاهتمام بالرسائل يختلف عن الاهتمام بالمصادر التاريخية، فالرسائل ليست كتابًا بين دفتين، وإنما هي مقاطع وفصول قد تشترك أو تختلف المخطوطات المتناثرة منها، وهكذا يصعب الجمع بينها ومقارنة نصوصها.

4- وأثناء دراسته للرسائل استطاع أن يفرز فيما بينها، ويستخلص تواريخ التأليف لمخطوطاتها المتعددة، أيها اختصت بالمرحلة المبكرة من حياة ضياء الدين، وأيها

للمرحلة المتأخرة منها، وكأنه يومئ للباحثين اللاحقين بضرورة إيجاد وجمع ما يزال مفقوداً من مخطوطات الرسائل لإعطاء صورة متكاملة لحياة ضياء الدين وعصره.

وتعد دراسة المستشرق كلود كاهن لضياء الدين بن الأثير ورسائله حلقة من سلسلة حلقات أضاء بها جوانب لم تحظ بالاهتمام الكافي، ونبّه من جاء بعده إلى أهميتها. وإن ما يميزه عن بقية أقرانه أنه حاول - على نحو يسير - الانعتاق من الجسد التقليدي للاستشراق الذي لا يعتد كثيراً بالمعلومات التي قدمتها المصادر العربية للحروب الصليبية، سوى ما تُرجم منها لبعض اللغات الأوروبية على نحو مجتزأ بناء على ما يوافق رغباتهم ويتواءم مع أهدافهم، على اعتبار أن هذه الحروب لم تكن إلا ظاهرة أوروبية بحتة، في حين أن كاهن - على امتداد دراساته لهذا الحقل - كان يتبع منهجاً صارماً، واختطَّ لنفسه طريقاً متفرداً في دراسة مصادر الحروب الصليبية، مؤكداً على قيمة وأهمية النظرة التي جسدتها المصادر العربية التي لا غنى عنها في تقديم تاريخ متكامل عن تلك الحروب، لذا فهي دعوة منه للاعتراف بأن الطرف الآخر في ساحة المعركة جدير بأن تُسمع شهادته.

وهكذا جاء اهتمامه بضياء الدين بن الأثير، المرتبط بجانب مهم من تاريخ هذه الحروب لصلته بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، وبرسائله بوصفها وثائق مهمة عن طبيعة العصر وتداعياته التي عاشها كاتبها ومؤلفها بتقديمها إضاءات عن نظم الإدارة الأيوبية، مؤكداً على أهميتها، ومشيراً إلى قيمتها التاريخية. وقبل ذلك كله قدم عرضًا وافيًا عن أهم المخطوطات التي ضمت الرسائل، إلا أنه لا يمكن التغاضي أو التنكّب عن الدراسات العربية المعاصرة التي تجاوزت بتحقيقها لنصوص الرسائل ونشرها على أيدي علماء أعلام من قبيل المقدسي وهلال ناجي ونوري القيسي وسواهم، كونها مثَّلت تجدداً دفاعيًا أمام زحف مقالات علمية استشراقية للرسائل كان لها الفشو والغلبة، لكن يبقى لكاهن فضل الريادة في هذا الجانب. ولا يعفيه ذلك من هنات هنا وهناك، وهذا ما جُبل عليه البشر من محددات في العقل والجهد(*).

(*) علي حسين علي: **المستشرق الفرنسي كلود كاهن ومصادر الحروب الصليبية؛** رسائل ضياء الدين بن الأثير أنموذجًا.مجلة **سرّ من رأى**، مج7، ع24 (كانون الثاني، 2011)، ص 195-197.

(4)

مع أن دراسة كاهن دراسة أكاديمية عن تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في فترة الحروب الصليبية – وليست عن تأثير هذه الحروب في التاريخ الحديث والمعاصر – وهو ميدان ظهرت في نطاقه العديد من الكتب المهمة في الآونة الأخيرة – فإن المرء لا يمكنه النظر إليها بمعزل عن السياق السياسي والثقافي الذي ظهرت به. فالكتاب لم يصدر في بيئة علمية خالصة ليطلع عليه نخبة من العلماء والباحثين فقط. فالطبعة الأولى قد صدرت عام 1983، والطبعة الثانية 1992؛ أي في فترات شهدت توترًا ملحوظًا في العلاقات بين الشرق والغرب بعد اندلاع الثورة الإيرانية التي أيقظت الشياطين القديمة في الغرب، والتي يبدو أنها لم تنم منذ قرون، فسنحت لها الفرصة لتطل برأسها من جديد، كما صاحَب هذا الحدث السياسي العديد من الأحداث الثقافية، التي ساعدت بصورة مباشرة أو غير مباشرة على تأجيج وبلورة الصراع الثقافي بين الشرق والغرب، وكان أهمها كتاب الباحث الفلسطيني إدوارد سعيد، المقيم في أمريكا، عن **الاستشراق** (1978م)، وما صدر في أعقابه من كتب ودراسات لعل أهمها كتاب برنارد لويس **كيف اكتشف**

المسلمون أوروبا (1982م). فإذا كان إدوارد سعيد ينتقد الاستشراق، أي الطريقة التي أدرك بها الغرب الشرق، فإن برنارد لويس ينتقد الاستغراب، أي الطريقة التي أدرك بها المسلمون الغرب، ويأتي كاهن في كتابه هذا[1] (1983م) ليبحث، ضمن موضوعات عديدة، قضية الوعي المتبادل وحدوده بين الشرق والغرب. وإذا كان كاهن قد اقتصر في معالجته لهذه القضية على فترة العصور الوسطى، فإن برنارد لويس قد جعلها محوراً شاملاً لكتابه الذي يمتد حتى حدود القرن التاسع عشر.

والكتاب[2] يؤرخ لفترة تاريخية من علاقات الشرق بالغرب في شتى جوانبها السياسية والثقافية والتجارية والعسكرية، وذلك استناداً لقراءة فاحصة ومدققة لأرشيفات تلك الفترة. ومن خلال هذا التاريخ نجد العلاقة بين الشرق والغرب والمقارنة الدائمة بينهما سائدة عبر صفحات الكتاب، فالمؤلف يبحث في طبيعة هذه العلاقة على أكثر من صعيد، غير أنه يركز بشكل أساسي على نوعية الوعي المتوافر لدى كل طرف عن الآخر، ومصادر هذا الوعي،

(1) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية.
(2) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية.

والتأثير والتأثر بينهما، وشروط ذلك، والمناطق التي تم عبرها هذا التبادل. كما لا يفوت المؤلف أن يقارن بين القدرات العسكرية وإجراءات المعركة لدى الطرفين. ويلاحَظ أن المؤلف قد انشغل كثيرًا في هذا الكتاب بدراسة الدويلات الفرنجية – الشرق اللاتيني – وهو في ذلك يكمل ما بدأه في أطروحته الجامعية عن سوريا الشمالية وإمارة أنطاكية سنة 1940، والتي استعاد كثيرًا منها في كتابه هذا مع دراسة الدويلات الفرنجية الأخرى التي لم يتناولها في أطروحته، وهي إمارة طرابلس وعكا ومملكة بيت المقدس.

ما الذي يمكن أن يخرج به المرء من قراءة هذا الكتاب؟ لا نريد أن نصادر حق القارئ في الوصول إلى قراءة ممتعة ومثيرة، إلا أننا نود أن نشير إلى أن مفاجآت هذا الكتاب كثيرة ومتنوعة، منها ما قد يروق للقارئ العربي، ومنها ما قد لا يروقه. وأقل هذه المفاجآت إثارة أن الحروب الصليبية لم تمنع التفاعل بين الشرق والغرب، وأنها لم تؤثر تأثيرًا كبيرًا على التجارة الغربية بالشرق، بل إن بعض المدن التجارية الإيطالية كانت تحصل على امتيازات أفضل من قِبَل بعض الدول الإسلامية، وذلك في عنفوان فترة الحروب الصليبية. بل يرى المؤلف أن الحروب الصليبية ساعدت

على نمو التجارة من عدة نواحٍ. والمفاجأة الأخرى تكمن فيما يقوله المؤلف عن الشرقيين الذين نادرًا ما حاولوا الاقتباس أو التعليم من أوروبا، حيث ينظرون إليها على أنها بلد بربري لا يمكن أن يُقتبس عنه أي شيء. وهنا يشارك كاهن وجهة نظر برنارد لويس الذي يصف العرب والمسلمين بأنهم يفتقدون الرغبة أو التطلع لمعرفة الآخر.

على أنه من حقنا أن ننبه القارئ إلى أن مؤلف الكتاب باحث غربي، وأنه يكتب لأقرانه في بيئة ثقافية مغايرة لنا، ولها سماتها الخاصة، ومن ثم لا ينبغي أن يتوقع منه ما ينتظر من مؤرخ عربي مسلم، ومع ذلك فقد كشف المؤلف عن تعاطف عميق تجاه تاريخ المنطقة العربية الإسلامية في العصر الوسيط، وربما أحيانًا بصورة أفضل من بعض المؤرخين العرب والمسلمين. غير أنه يكتب في النهاية من منظور غربي له خصائصه الخاصة، وحدوده التي لا يمكن تجاوزها، وهو ما يبدو جليًا منذ بداية الكتاب؛ حيث يقول: «وفي النهاية، فإن كل ما كتب في هذا الموضوع قد تم من وجهة نظر غربية. من المؤكد أن الحروب الصليبية لا مجال لعرضها من منظور شرقي، ومع ذلك فهي تندرج بشكلٍ ما داخل سياق شرقي، وقد يكون من المفيد عقد

مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجهًا لوجه». ويمثل هذا الرأي أوضح معالم النـزعة الأوروبية المركزية، وإن كان كاهن لا يمثلها إلا نادرًا. وهو هنا يحاور أقرانه، ويسعى إلى إقناعهم بأن من حق الشرقيين أيضًا أن يدرسوا هذه الفترة، وأنه إذا كانت الحروب الصليبية مبادرة أوروبية نمت وانطلقت من الغرب، وإذا كان منطقيًا أن الغرب في هذه الحالة هو الأقدر على دراستها، فإنه في اللحظة التي وصلت فيها هذه الحملات الصليبية إلى الشرق يصير من المنطقي أيضًا أن يقوم الشرقيون بدراستها.

فالمؤلف لا يرفض مبدأ قيام الشرق بدراسة أوجه الحضارة الغربية بشكل عام، فبالأحرى أن يدرس الشرق تلك الفترات التي حدث خلالها صراع أو التقاء مع منتجات الحضارة الغربية. لكن المؤلف لا يسمي في كثير من الأحيان محاوريه، وهو ما ينشأ عنه بعض اللبس والغموض. كما أن من خصائص هذا المنظور الغربي – الذي أرَّخ كاهن لهذه الفترة من خلاله – أنه يتحدث عن الإسلام بشكل عام وغامض، ودون التمييز بين الإسلام كدين وكجغرافيا وكمسلمين، فأحيانًا يتحدث المؤلف عن تغلب الصليبيين على الإسلام،

والمقصود بالطبع المسلمين. وكذلك من خصائص هذا المنظور الغربي في الكتابة عن تاريخ هذه الفترة أنه يكشف بصورة لا تدع مجالاً للشك عن عقلية التوسع الاستعماري الأوروبي، والنموذج البارز في هذا الكتاب نجده في تعبير «الشرق اللاتيني». فإذا كان الغرب اللاتيني الكاثوليكي قد أسس بعض الدويلات أو الإمارات الصغيرة في الشرق أثناء فترة الحملات الصليبية، فإن هذه الدويلات صارت شرقًا لاتينيًا امتدادًا للغرب اللاتيني.

صحيح أن كاهن قد حذر أكثر من مرة في كتابه من الإفراط في استخدام هذا التعبير، إلا أنه في النهاية اعتمده طوال الكتاب مثله مثل أقرانه من الباحثين. وكان يمكننا التغافل عن استخدام تعبير «الشرق اللاتيني» لو أن استعماله كان عابرًا أو مجازيًا، لكن الحقيقة غير ذلك. وتزداد حيرتنا أكثر عندما يدرك كاهن كباحث وعالم حدود هذا التعبير في حوار مع أقرانه، ثم لا يسلك وفقًا لهذه القناعة.

ومن ملامح هذا المنظور الغربي ألاّ نجد اهتمامًا كافيًا بالقادة المسلمين الذين نهضوا لمقاومة الغزو الصليبي للمنطقة، وأحيانًا نجد تقليلاً من شأن انتصاراتهم. ففي الفصل الذي يتحدث فيه المؤلف عن صلاح الدين يدور

الحديث في الأغلب عن أمور أخرى غير صلاح الدين وانتصاراته العسكرية، التي لا تحظى بتقدير كافٍ من المؤلف يتلاءم وقيمتها الحقيقية، وليس المعنوية فقط. وربما يجد القارئ التاريخ يضيء الحاضر في قضية محورية بالكتاب، وهي طبيعة مدينة القدس؛ إذ يقول المؤلف: «أجل، لقد كانت القدس مدينة مقدسة، غير أن ذلك لم يكن يستتبع أن تكون تحت سلطة المسيحيين فقط. إن سيادة المدينة على الصعيد الديني لم تكن قد امتدت بعد في شكل التزام سياسي».

والكتاب رغم أن مؤلفه غربي، إلا أن طريقته في معالجة تاريخ تلك الفترة اتسمت بقدر كبير من الموضوعية التي تفتقرها أغلب الكتابات المرتبطة بالحروب الصليبية. وبعد الشروع في الترجمة ظهر أنه كتاب ليس مثل الكتب الأخرى، فهو كتاب متعدد المنابع، ويكشف عن جهد موسوعي يتطرق إلى ميادين شتى من التاريخ إلى الجغرافيا والأديان وعالم الجيوش والتجارة والثقافة، وهو أمر يتطلب من المترجم بدوره أن يرتفع إلى مستوى هذا الكتاب الأكاديمي، وأن يصل إلى قدر من المعرفة بهذه الميادين لا يكون مقتصراً على المعرفة المتوافرة لدينا عن الحروب

الصليبية كرواية تروى بأسلوب شيق وسلس... وكانت المفاجأة أعظم بعد إمعان النظر في الأسلوب الذي استخدمه مؤلف الكتاب، وهو أسلوب بالغ الدقة والتكثيف والصعوبة، بحيث لا يوجد سطر أو جملة إلا وهي محملة بأكثر قدر ممكن من المعاني. فالمؤلف من الباحثين المدققين، يمقت السهولة والخفة التي تبدو في كتابات كثير من الباحثين الغربيين، وربما لهذا السبب لم ينل الاهتمام الذي يستحقه مثل غيره من الباحثين الذين جمعوا بين البحث العلمي الأكاديمي والعمل السياسي والإعلامي(*).

(*) أحمد الشيخ: مقدمة كتاب **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية**، ص 8 - 13.

رابعًا ـ ببليوغرافية

1- مختارات من مؤلفات كلود كاهن وترجماتها العربية

1. Études Sur l'histoire économique et financière de l'Égypte médievale. Leiden: Brill, 1977.

2. L'évolution de l'iqtā,' de IX^e^ au XIII^e^ siècle; Contribution à une histoire comparèe des sociètés médiévales. *Anmales* ESC, 8 (1953), pp. 25-52.

تطور الإقطاع الإسلامي ما بين القرنين التاسع والثالث عشر؛ إسهام في التاريخ المقارن للمجتمعات في العصور الوسطى. ترجمة جورج كتورة، ومراجعة رضوان السيد. مجلة **الاجتهاد**، ع1 (خريف 1988)، ص ص 193 – 242.

3. Introduction à l'histoire de l'Orient musulman/ Jean Sauvaget, édition refondue et complétée par Claude Cahen. Paris: A. Maisonneuve, 1961

مصادر دراسة التاريخ الإسلامي؛ دليل ببليوغرافي، ترجمة عبدالستار الحلوجي وعبدالوهاب علوب. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1998.

4. An Introduction to The First Crusade. *Past and Present*; journal of Sientific History, 6 (Nov. 1954) pp. 6-30.

مدخل إلى الحملة الصليبية الأولى- ترجمة عبدالباسط منادي إدريسي- **مؤمنون بلا حدود** للدراسات والأبحاث (الرباط- أكدال)، 14 مارس 2018، ص ص 2-24

5. L'Islam des origins au début de l'empire ottoman. Paris: Bordas, 1970.

الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية. ترجمة حسين جواد قبيسي، مراجعة علي نجيب إبراهيم. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2010.

6. Movements Populaires et autonomismes urbains dans l'Asie musulmane du Moyen âge. Leiden: Brill, 1959.

الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى. ترجمة علي مقلد. مجلة **الاجتهاد**، السنة الثانية (شتاء 1990)، ص ص 105-206.

7. Orient et Occident au temps des Croisades. Paris: Aubier, 1983.

الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية. ترجمة أحمد الشيخ: القاهرة: سينا للنشر، 1995.

8. Les peuples musulmans dans l’histoire mèdievale. Damas: Institut Français de Damas, 1977.

9. Pre-Ottoman Turkey; a general Survey of the material and spiritual culture and history circa 1071- 1330. London, 1968.

10. La Syrie du Nord à l’époque des Croisades et la Principauté franque d’Antioche. Paris: Geuthner, 1940.

2- مختارات مما كُتب عنه

1- عبدالرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**. ط3. بيروت: دار العلم للملايين، 1993. ص 460-461.

2- عبدالغني أبو العزم: **مع المستشرقَيْن كلود كاهن وأندري ميكيل**. مجلــة **شئــون عربيــة**، ع 12 (فبراير 1982)، ص 274-296.

3- علي بن إبراهيم النملة: **الالتفاف على الاستشراق؛** محاولة التنصُّل من المصطلح. الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 2007، ص 69.

4- علي حسين علي: **المستشرق الفرنسي كلود كاهن ومصادر الحروب الصليبية؛** رسائل ضياء الدين بن الأثير أنموذجًا.

مجلة **سرّ من رأى** (جامعة سامراء)، مج7، ع24 (2011)، ص ص 182-202.

5- نجيب العقيقي: **المستشرقون**. ط4. القاهرة: دار المعارف، 1980. ج1، ص ص 342-346.

6. Eddé, Anne-Marie: Claude Cahen et les sources Arabes des croisades. *Arabica*, T. 43, (1996), pp. 89-97.

7. Garcin, Jean-Claude: Claude Cahen (1909-1991) *Journal of the Economic and Social History of the Orient*. Vol. 35, issue 2 (Jan. 1992), pp. 104-108.

3- المواقع الشبكية ذات الصلة به

Claude Cahen

https://en.wikipedia.org/wiki/Claude_Cahen

Claude Cahen 1909 - 1991 [other]

https://www.persee.fr/doc/remmm_0997-1327_1991_num_59_1_2685

https://www.persee.fr/doc/cemot_0764-9878_1992_num_13_1_1012

Claude Cahen (1909–1991)

http://www.crusaderstudies.org.uk/resources/historians/profiles/cahen/index.html

CAHEN Claude (1909-1991)

https://www.appl-lachaise.net/appl/article.php3?id_article=4383

Les notices NetDBA

http://www.alsace-histoire.org/fr/notices-netdba/cahen-claude.html

CLAUDE CAHEN ÇALIġMALARI VE HAKKINDA YAPILAN ARAġTIRMALAR

http://dergipark.gov.tr/download/article-file/260939

CAHEN, Claude

https://islamansiklopedisi.org.tr/cahen-claude

Bibliographie de Claude Cahe

https://www.babelio.com/auteur/Claude-Cahen/47897

Claude Cahen (1909-1991)

http://data.bnf.fr/11894777/claude_cahen/

Bibliographie des travaux de Claude Cahen

https://www.jstor.org/stable/4057524?seq=1#page_scan_tab_contents